

Ghazzālī

/Faysal al-tafrīzah bayna al-Islām wa-al-

أبو حامد الغزالى

فيصل النفرقة بين الإسلام والزندقة

zandagah/

تحقيق ودراسة سميائية

حُكْمَة مُصَطْفَى

دكتور في الأدب والعلوم الإنسانية
خريج معهد العلوم السياسية - باريس

ترجمة الدراسة السميائية

إدريس الناقوري

1983

ABŪ HĀMID AL GAZĀLĪ

**(FAYSAL AL-TAFRIQA BAYN AL 'ISLAM
WA -L- ZANDAQĀ)**

**Le critère décisif de distinction
entre l'islam et le manichéisme**

PRESENTATION, TRADUCTION, ETUDE SEMIOTIQUE PAR.

HOGGA MUSTAPHA

*Docteur ès lettres et Sciences Humaines
Diplômé de l'I.E.P. Paris*

1983

BP
160
G46
1983
C. 1

MAY 3 0 1996

تذبيه

استخرج النص العربي المترجم من طبعة رذئه وعسيرة القراءة
بعنوان «القصور العوالى ج 1 ص 159 - 123» دار الطباعة المحمدية
الازهر، القاهرة). وكان من الازم أن تشكل وتصح وتجزء الى فقرات،
وإعطاء عناوين فرعية لمختلف الفصول.

جipp الخرق محفوظة

طبع وتوزيع دار النشر المقربة
13/5 زنقة الجندي روش - الهاتف : 24.51.47/48
الدار البيضاء

بيع في مكتبة «اديماء» 27 زنقة حسن الصغير
الهاتف : 30.47.11/30.47.18 - الدار البيضاء
الايداع القانوني 1983/59

ترجمة وببليوغرافيا مجللة

ولد الغزالى سنة 450 هـ / 1058 م في طوس، عقب استيلاء السلاجقة على السلطة بعامين، وتلقى تعليمه الديني في مدرسة شافعية وأشعرية ثم تابع دروسه في النظامية في نيسابور (مدرسة الدولة السلجوقية). وبعد أن قضى سنتين إلى جانب الوزير السلجوقي القوي نظام الملك، أصبح استاذًا في المدرسة النظامية ببغداد.

وقد دفعته أحداث عصره: اغتيال نظام الملك سنة 1092 م وأزمة الخلافة السلجوقية العميقة وتصاعد الحركة الشيعية المتطرفة والمشاكك النفسية الروحية إلى التخلي عن التدريس والانسحاب من مسرح السياسة والمجتمع.

وقد ألف الغزالى في فترة ارتباطه المتبين بالدولة العباسية السلجوقية كتبه الأساسية التي تميزت بالدفاع السجالي عن مذهب الأشاعرة وبالمعارضة القوية لمذهب الاعتزال والفلسفة والتشييع، من بين هذه الكتب: معيار العلم، مقاصد الفلاسفة، تهافت الفلاسفة، الاقتصاد في الاعتقاد، فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية، محك النظر...

وفي فترة اعزاله الناس، التي استمرت عشر سنوات، مارس الغزالى حياة التصوف وحج إلى مكة وبيت المقدس، وألف كتابه الموسوعي : إحياء علوم الدين. واستأنف التدريس بطلب من فخر الملك، ابن نظام الملك في نظامية نيسابور سنة 499 هـ / 1106 م.

فرس

<p>I تنبية</p> <p>II ترجمة وببليوغرافيا مجلمة</p> <p>1 فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة</p> <p>الفصل الأول : الشرع والبحث عن الحق .</p> <p>4 الفصل الثاني : التكفير بسبب الاختلاف المذهبى ناتج عن التقليد ولا أساس له .</p> <p>7 الفصل الثالث : التكفير يقع على من يكذب الرسول .</p> <p>8 الفصل الرابع : للوجود خمسة مراتب .</p> <p>11 الفصل الخامس : المراتب الخمسة وأمثلتها في التأویل .</p> <p>16 الفصل السادس : ضرورة التأویل مفروضة على جميع الفرق</p> <p>18 الفصل السابع : شرط التأویل، البرهان القاطع</p> <p>21 الفصل الثامن : تأویل أصول العقائد بدون برهان قاطع يؤدي إلى التكفير .</p> <p>25 الفصل التاسع : التكفير بين الاعتبارات النظرية والشرعية : مفهوم الضرر .</p> <p>29 الفصل العاشر : شروط التواتر والاجماع والبرهان .</p> <p>33 الفصل الحادى عشر : نقد الكلام وتمجيد النور الالاهي</p> <p>37 الفصل الثاني عشر : قضايا النجاة، والشفاعة والرحمة الالاهية .</p> <p>42 الفصل الثالث عشر : مأخذ التكفير شرعى</p> <p>43 الفصل الرابع عشر : الغلط لا يعرض مرتكبه إلى التكفير</p> <p>45 سيميائية الفيصل .</p> <p>45 تحليل النموذج</p> <p>49 دراسة الاستقطاب .</p> <p>59 التحليل المفهومي</p> <p>67 سلطة البلاغة .</p> <p>73 معجم المصطلحات .</p>	<p>ويبدو أنه ألف «الفيصل..» في هذا التاريخ بالإضافة إلى «القسطاس المستقيم» و«بداية الهدایة» و«أيتها الولد».</p> <p>وفي سنة 1107 م غادر التدریس من جديد واعتزل الحياة نهائياً في طوس حيث كتب بعض المؤلفات الصوفية أشهرها: «مشكاة الأنوار» وسيرة ذاتية: «المنفذ من الضلال». وانكب بعد ذلك على دراسة الحديث بعمق إلى وفاته بطوس سنة 505 هـ / 1111 م.</p>
--	---

أبو حامد الغزالى

فيصل التفرقة بين الاسلام والزنادقة

الفصل الأول

الشرع والبحث عن الحق

أَحْمَدُ اللَّهُ تَعَالَى اسْتِسْلَامًا لِعِزَّتِهِ، وَاسْتِتَمَامًا لِنِعْمَتِهِ، وَاسْتِغْنَامًا لِتَوْفِيقِهِ وَمَعْوِنَتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَاسْتِعْصَامًا مِنْ حَذْلَانَتِهِ، وَمَعْصِيَتِهِ، وَاسْتِدْرَارًا لِسَوَابِعِ نِعْمَتِهِ؛ وَأَصْلَى عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ وَخَيْرِ خَلِيقَتِهِ، انْقِيَادًا لِنُبُوَّتِهِ، وَاسْتِجْلَابًا لِشَفَاعَتِهِ، وَقَضَاءَ لِحَقِّ رِسَالَتِهِ، وَاسْتِعْصَامًا بِيَمِّنِ سَرِيرَتِهِ وَنَقِيَّتِهِ، وَعَلَى أَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَعَتْرَتِهِ.

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّمَا رَأَيْتُكَ أَيُّهَا الْأَخُ الْمُشْفِقُ، وَالصَّدِيقُ الْمُتَعَصِّبُ مُوْغِرُ الصَّدْرِ، مُنْقَسِمُ الْفِكْرِ لِمَا قَرَعَ سَمْعَكَ مِنْ طَعْنٍ طَائِفَةٍ مِنَ التَّحْسَدِ، عَلَى بَعْضِ كُتُبِنَا الْمُصَنَّفَةِ فِي أَسْرَارِ مُعَالَمَاتِ الدِّينِ، وَزَعْمَهُمْ أَنَّ فِي هَـا مَا يُخَالِفُ مَذَهَبَ الاصْحَابِ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَالْمَشَايخِ الْمُتَكَلَّمِينَ، وَأَنَّ الْعَدُولَ عَنْ مَذَهَبِ الْأَشْعَرِيِّ وَلَوْ فِي قَيْدِ شِبْرِ كُفْرٍ وَمُبَايَنَتِهِ، وَلَوْ فِي شَيْءٍ نَزَّرَ ضَلَالًا وَخُسْرًا.

فَهُوَنَّ أَيُّهَا الْأَخُ الْمُشْفِقُ الْمُتَعَصِّبُ عَلَى نَقْسِكَ، لَا تُضَيِّقُ بِهِ صَدَرَكَ، وَفُلْكَ مِنْ غُرْبِكَ قَلِيلًا «وَأَصْبِرْ»

الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ هَذَا إِلَّا سُحْرٌ مُّبِينٌ»⁽⁶⁾). وَقَوْلُهُ تَعَالَى «وَلَوْ أَنَّا نَرَلَنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمْ الْمُؤْمِنَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ»⁽⁷⁾.

وَاعْلَمُ أَنَّ حَقِيقَةَ الْكُفُرِ وَالإِيمَانِ وَهُدَى هُمَا، وَالْحَقُّ وَالضَّلَالُ وَسَرَّهُمَا، لَا يَنْتَجِلُ لِلْقَالُوبِ الْمُدَنَّسَةِ بِطَلَبِ الْجَاهَةِ وَالْمَالِ وَحُبَّهُمَا. بَلْ إِنَّمَا يَنْكَشِفُ دُونَ ذَلِكَ الْقَلْوبِ طَهْرَتْ عَنْ وَسْخِ أَوْضَارِ الدُّنْيَا أَوْلًا، ثُمَّ صُقِّلَتْ بِالرَّيَاضَةِ الْكَامِلَةِ ثَانِيًّا، ثُمَّ نُورَتْ بِالذِّكْرِ الصَّلَفيِّ ثَالِثًا، ثُمَّ عَذَّبَتْ بِالْفَكِيرِ الصَّائِبِ رَابِعًا، ثُمَّ زُيَّنَتْ بِمُلَازْمَةِ حُدُودِ الشَّرْعِ خَامِسًا، حَتَّى فَاضَ عَلَيْهَا النُّورُ مِنْ مِشْكَانِ النُّبُوَّةِ، وَصَارَتْ كَانَهَا مِرْأَةً مَجْلُوَّةً، وَصَارَ مِصْبَاحُ الْإِيمَانِ فِي زُجَاجَةِ قَلْبِهِ مُشْرِفًا إِلَيْنَا، «يَكَادُ زَيْنَهُ يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَافِرًا»⁽⁸⁾.

وَأَنَّى تَتَجَلَّى أَسْرَارُ الْمَلَكُوتِ لِقَوْمٍ إِلَفُهُمْ هَوَاهُمْ، وَمَعْبُودُهُمْ سَلَاطِينُهُمْ، وَقِبْلَتُهُمْ دَرَاهِمُهُمْ وَدَنَانِيرُهُمْ. وَشَرِيكُوتُهُمْ رُعْوَنَتُهُمْ. وَإِرَادَتُهُمْ جَاهُهُمْ وَشَهَوَاتُهُمْ، وَعِبَادَتُهُمْ خِدْمَتُهُمْ أَغْنِيَاهُمْ، وَذِكْرُهُمْ وَسَلَوْسُهُمْ، وَكَنْزُهُمْ سَوَاسُهُمْ، وَفَكْرُهُمْ اسْتِنْبَاطُ الْحِيلَ لِمَا تَقْتَضِيهِ حِشْمَتُهُمْ؟ فَهُؤُلَاءِ مِنْ

6 - سورة الأنعام : 7.

7 - سورة الأنعام : 111.

8 - راجع سورة النور (35).

عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا»⁽¹⁾ وَاسْتَحْقَرَ مَنْ لَا يُحْسَدُ وَلَا يُقْذَفُ، وَاسْتَصْغَرَ مَنْ بِالْكُفْرِ أَوْ الضَّلَالِ لَا يُعْرَفُ؛ فَأَيِّ دَاعٍ أَكْمَلَ وَأَعْقَلَ مِنْ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ قَالُوا : «إِنَّهُ مَجْنُونٌ» مِنَ الْمَجَانِينَ⁽²⁾ وَأَيِّ كَلَامٍ أَجَكَ وَأَصْدَقَ مِنْ كَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَقَدْ قَالُوا : «إِنَّهُ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»⁽³⁾. وَإِيَّاكَ أَنْ تَشْتَغِلَ بِخَصَامِهِمْ وَتَطْمَعَ فِي إِفْحَامِهِمْ، فَتَطْمَعُ فِي غَيْرِ مَطْمَعٍ، وَتَصْوِتُ فِي غَيْرِ مَسْمَعٍ - أَمَا سَمِعْتَ مَا قِيلَ؟

كُلُّ الْعُدَاءِ قَدْ تُرْجَمَى سَلَامَتُهَا إِلَّا عَدَاكَ مِنْ عَادَكَ عَنْ حَسَدِ

وَلَوْ كَانَ فِيهِ مَطْمَعٌ لَأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، لَمَّا تُلِيَ عَلَى أَجْلَاهُمْ رُتْبَةُ آيَاتِ الْيَاءِ، أَوْ مَا سَمِعْتَ قَوْلُهُ تَعَالَى : «وَلَوْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَلَيْنَ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفْقَا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لِجَمِيعِهِمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونُنَّ مِنَ الْجَاهَلِينَ»⁽⁴⁾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : «وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلَّلُوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لِقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرْتَ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ»⁽⁵⁾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى «وَلَوْ نَرَلَنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمْسُوهُ يَا يَدِيْهِمْ لِقَالَ

1 - سورة العنكبوت : 10.

2 - راجع : سورة القلم : 51.

3 - راجع : سورة المؤمنون : 83.

4 - سورة الأنعام : 35.

5 - سورة الحجر : 14 - 15.

فَلَا تُضِيغْ بِإِصْلَاحِهِ الزَّمَانَ، وَنَاهِيكَ حُجَّةً فِي إِقْحَامِهِ، مُقَابَلَةً دَعْوَاهُ بِدَعْوَى خُصُومِهِ، إِذْ لَا يَجِدُ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ سَائِرِ الْمُقْلَدِينَ الْمُخَالِفِينَ لَهُ فَرْقًا وَفَصْلًا . وَلَعَلَّ صَاحِبَهُ يَمْكِثُ مِنْ سَائِرِ الْمَذَاهِبِ إِلَى إِلَّا شَعْرِيَّ، وَيَرْعَمُ أَنَّ مُخَالَفَتَهُ فِي كُلِّ وَرْدٍ وَصَدَرٍ كُفَّرٌ مِنَ الْكُفَّرِ الْجَلِيِّ . فَاسْأَلْهُ مِنْ أَيْنَ ثَبَّتْ لَهُ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ وَقَفَا عَلَيْهِ حَتَّى قَضَى بِكُفَّرِ الْبَاقِلَانِيِّ إِذْ خَالَفَهُ فِي صِفَةِ الْبَقَاءِ لِلَّهِ تَعَالَى وَزَعَمَ أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ وَصَفَّا لَهُ تَعَالَى زَائِدًا عَلَى الذَّاتِ . وَلَمْ صَارَ الْبَاقِلَانِيُّ أَوْلَى بِالْكُفَّرِ بِمُخَالَفَتِهِ إِلَّا شَعْرِيَّ مِنَ إِلَّا شَعْرِيَّ بِمُخَالَفَتِهِ الْبَاقِلَانِيِّ؟ وَلَمْ صَارَ الْحَقُّ وَقَفَا عَلَى أَحَدِهِمَا دُونَ الثَّانِيِّ؟ أَكَانَ ذَلِكَ لِأَجْلِ السَّبِقِ فِي الزَّمَانِ فَقَدْ سَبَقَ الْأَشْعَرِيَّ غَيْرِهِ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ فَلَيَكُنَّ الْحَقُّ لِلْسَّابِقِ عَلَيْهِ أَمْ لِأَجْلِ التَّقَوَّتِ فِي الْفَضْلِ وَالْعِلْمِ؟ فَبِأَيِّ مِيزَانٍ وَمِكْيَالٍ قَدَرَ درجاتِ الْفَضْلِ حَتَّى لَاحَ لَهُ أَنْ لَا أَفْضَلَ فِي الْوُجُودِ مِنْ مَتَّبِعِهِ وَمُقْلِلِهِ؟

فَإِنْ رَخَصَ لِلْبَاقِلَانِيِّ فِي مُخَالَفَتِهِ فَلِمَ حَجَرَ عَلَى غَيْرِهِ؟ وَمَا التَّفْرِقُ بَيْنَ الْبَاقِلَانِيِّ وَالْكَرَابِيسِيِّ وَالْقَلَانِسِيِّ وَغَيْرِهِمْ؟ وَمَا مُدْرِكُ التَّخْصِيصِ بِهَذِهِ الرُّخْصَةِ؟ وَلَمْ زَعَمْ أَنَّ خَلَافَ الْبَاقِلَانِيِّ يَرْجِعُ إِلَى لَفْظٍ لَا تَحْقِيقَ وَرَاءَهُ كَمَا تَعْسَفُ بِتَكَلُّفِهِ بَعْضُ الْمُتَعَصِّبِينَ زَاعِمًا أَنَّهُمَا جَمِيعًا مُتَوَافِقُانَ عَلَى دَوَامِ الْوُجُودِ، وَالْخَلَافُ فِي أَنَّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى الذَّاتِ أَوْ إِلَى وَصْفِ زَائِدٍ عَلَيْهِ، خَلَافٌ قَرِيبٌ، لَا يُوجِبُ التَّشْدِيدَ، فَمَا بِاللَّهِ يُشَدِّدُ الْقَوْلَ عَلَى الْمُعْتَزِلِيِّ فِي نَقْيَهِ الصَّفَاتِ

أَيْنَ تَتَمَيَّزُ لَهُمْ ظُلْمَةً الْكُفَّرُ مِنْ ضَيَاءِ إِلَيْمَانِ؟ أَبِإِلَهَامِ إِلَهِيِّ وَلَمْ يُقْرَغُوا الْقُلُوبَ عَنْ كَدُورَاتِ الدُّنْيَا لِقَبُولِهَا؟ أَمْ بِكَمَالِ عِلْمِيِّ؟ وَإِنَّمَا بِضَاعَتْهُمْ فِي الْعِلْمِ مَسَالَةُ الدَّجَاسَةِ وَمَاءُ الزَّعْفَرَانِ وَأَمْتَالُهُمَا؟

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ هَذَا الْمَطَلَبُ أَنْفَسُ وَأَعَزُّ مِنْ أَنْ يُدْرِكَ بِالْمُنْتَهَى، أَوْ يُنَاكِبَ بِالْهُوَيْنَا. فَاَشْتَغَلَ أَنْتَ بِشَانِكَ وَلَا تُضِيغْ فِيهِمْ بِقَيْةً زَمَانِكَ «فَأَعْرَضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ظَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى» (٩).

الفصل الثاني

التكفير بسبب الاختلاف المذهبى ناتج عن التقليد ولا أساس له

فَأَمَّا أَنْتَ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَنْتَزَعَ هَذِهِ الْحَسَكَةَ مِنْ صَدَرِكَ. وَصَدَرُكَ هُوَ فِي حَالِكَ، مِمَّنْ لَا تُحَرِّكُهُ غِوَایَةُ الْحَسُودِ وَلَا تُقْيِدُهُ عِمَایَةُ التَّقْلِيدِ بَلْ تَعَطُّشُهُ إِلَى الْإِسْتِبْصَارِ لِحَزَازَةِ إِشْكَالِ أَبْثَارِهَا فِكْرَ، وَهَيْجَهَا نَظَرَ، فَخَاطَبَ نَفْسَكَ وَصَاحِبَكَ وَطَالِبَهُ بِحدِ الْكُفَّرِ . فَإِنْ زَعَمْ أَنَّ حَدَّ الْكُفَّرِ مَا يُخَالِفُ مَذَهَبَ إِلَّا شَعْرِيَّ أَوْ مَذَهَبَ الْمُعْتَزِلِيِّ أَوْ مَذَهَبَ الْحَنْبَلِيِّ أَوْ غَيْرِهِمْ فَأَعْلَمُ أَنَّهُ غُرْ بَلِيدُ، قَدْ قَيَّدَهُ التَّقْلِيدُ فَهُوَ أَعْمَى مِنَ الْعُمَيَانِ.

وَهُوَ مُعْتَرِفٌ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَالِمٌ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ
الْمَعْلُومَاتِ قَادِرٌ عَلَى جَمِيعِ الْمُمْكِنَاتِ، وَإِنَّمَا يُخَالِفُ
الْأَشْعَرِيِّ فِي أَنَّهُ عَالِمٌ وَقَادِرٌ بِالذَّاتِ أَوْ بِصِفَةِ زَايَةٍ؟ فَمَا
الْفَرْقُ بَيْنَ الْخِلَافَيْنِ؟ وَأَيُّ مَطْلَبٍ أَجَلُّ وَأَخْطَرُ مِنْ صِفَاتِ
الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي النَّظَرِ فِي نَقْيَهَا وَإِثْبَاتِهَا.

فَإِنْ قَالَ إِنَّمَا أَكْفَرُ الْمُعْتَرِفَ لِيَ لِأَنَّهُ يَرْعَمُ أَنَّ
الذَّاتَ الْوَاحِدَةَ تَصْدُرُ مِنْهَا فَائِدَةُ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةُ
وَالْحَيَاةُ وَهَذِهِ صِفَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ بِالْحَدِّ
وَالْحَقِيقَةِ، وَالْحَقَائِقُ الْمُخْتَلِفَةُ تَسْتَحِيقُ أَنْ تُوَصَّفَ
بِالْتَّحَادِ أَوْ تَقُومَ مَقَامَهَا الذَّاتِ الْوَاحِدَةِ، فَمَا بِالْهُ لَا
يَسْتَبِعُ مِنْ أَلْأَشْعَرِيِّ قَوْلَهُ إِنَّ الْكَلَامَ صِفَةٌ زَايَدَةٌ
فَائِدَةٌ بِذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَعَ كَوْنِهِ وَاحِدًا هُوَ تَوْرَاهُ
وَإِنْجِيلٌ "وَزَبُورٌ" وَقُرْآنٌ وَهُوَ أَمْرٌ وَنَفْيٌ وَخَبَرٌ
وَاسْتِخْبَارٌ - وَهَذِهِ حَقَائِقُ مُخْتَلِفَةٌ؛ وَكَيْفَ لَا وَاحِدٌ
الْخَبَرُ مَا يَتَطَرَّفُ إِلَيْهِ التَّصْدِيقُ وَالْتَّكَذِيبُ وَلَا
يَتَطَرَّفُ ذَلِكُ إِلَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ . فَكَيْفَ تَكُونُ حَقِيقَةُ
وَاحِدَةٌ" يَتَطَرَّفُ إِلَيْهَا التَّصْدِيقُ وَالْتَّكَذِيبُ وَلَا
يَتَطَرَّفُ فِي جَمِيعِ النَّفَيِّ وَالْإِثْبَاتِ عَلَى شَيْءٍ
وَاحِدٍ.

فَإِذَا تَخَبَّطَ فِي جَوَابِ هَذَا أَوْ عَجَزَ عَنْ كَشْفِ
الْعَطَاءِ فِيهِ : فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَإِنَّمَا
هُوَ مُقْلَدٌ، وَشَرْطُ الْمُقْلَدِ أَنْ يُسْكَنَ وَيُسْكَنَ عَنْهُ،
لَاَنَّهُ قَاصِرٌ عَنْ سُلُوكِ طَرِيقِ الْحِجَاجِ . وَلَوْ كَانَ أَهْلَهُ
لَهُ كَانَ مُسْتَتَبِعًا لَا تَابِعًا، وَإِمَامًا لَا مَأْمُومًا . فَإِنْ
خَاصُ الْمُقْلَدِ فِي الْمَحَاجَةِ فَذَلِكُ مِنْهُ فُضُولٌ
وَالْمُشْتَغَلُ بِهِ صَارَ كَضَارَبٍ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ وَطَالِبٍ
لِصَلَاحِ الْفَاسِدِ - وَهَذِهِ يُصلِحُ الْعَطَاءَ مَا أَفْسَدَ الدَّاهِرُ؟

الفصل الثالث

التكفير يقع على من يكذب الرسول

لَعَلَكَ تَشْتَهِي أَنْ تَعْرِفَ حَدَّ الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ
تَتَنَاقُضَ عَلَيْكَ حُدُودُ أَصْنَافِ الْمُقْلَدِينِ : فَاعْلَمْ أَنَّ
شَرْحَ ذَلِكَ طَوِيلٌ" وَمُدْرِكٌ غَامِضٌ" وَلَكِنَّي أَعْطَيْكَ
عَلَامَةً صَحِيقَةً فَتَطَرُّدُهَا وَتَعْكِسُهَا لِتَتَخَذَهَا مَطْمَحًا
نَظَرَكَ، وَتَرْعُوْيِّي بِسَبِيلِهَا عَنْ تَكْفِيرِ الْفَرْقِ،
وَتَطْوِيلِ الْلَّسَانِ فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ
طَرْقُهُمْ مَادَامُوا مُتَمَسِّكِينَ بِيَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
مُحَمَّدٌ" رَسُولُ اللَّهِ، صَادِقِينَ بِهَا غَيْرُ مُنَاقِضِينَ لَهَا .

فَيَقُولُ : الْكُفْرُ هُوَ تَكْذِيبُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةِ
وَالسَّلَامُ فِي شَيْءٍ، مِمَّا جَاءَ بِهِ، وَالْإِيمَانُ تَصْدِيقُهُ فِي
جَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ، فَالْيَهُودِيُّ وَالنَّصَارَى كَافِرُانِ
لِتَكْذِيبِهِمَا لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالْبَرَّهُمِيُّ
كَافِرٌ بِالطَّرِيقِ الْأَوْلَى لِأَنَّهُ أَنْكَرَ مَعَ رَسُولِنَا سَائِرِ

فَأَقُولُ : التَّصْدِيقُ إِنَّمَا يَتَطَرَّفُ إِلَى الْخَبَرِ بَلْ
إِلَى الْمُخْبِرِ، وَحَقِيقَةُ الْإِعْتِرَافِ بِيُوْجُودِ مَا أَخْبَرَ
الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ وُجُودِهِ؛ إِلَّا أَنَّ
لِلْوُجُودِ خَمْسٌ مَرَاتِبٌ وَلِأَجْلِ الْغَفَلَةِ عَنْهَا نَسَبَتْ
كُلُّ فِرَقَةٍ مُخَالِفَهَا إِلَى التَّكْذِيبِ. فَإِنَّ الْوُجُودَ ذَاتِيَّةٍ
وَحَسِيبٌ وَخَيَالِيٌّ وَعَقْلِيٌّ وَسَبَهِيٌّ.

فَمَنْ اعْتَرَفَ بِيُوْجُودِ مَا أَخْبَرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ عَنْ وُجُودِهِ بِوَجْهِهِ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ الْخَمْسَةِ،
فَلَيَسْ بِيُمْكَذَبٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ. فَلَنُشَرِّحَ هَذِهِ
الْأَصْنَافَ الْخَمْسَةَ وَلِنَذَكِّرَ مِثَالَهَا فِي التَّأْوِيلَاتِ.

أَمَّا الْوُجُودُ الذَّاتِيُّ فَهُوَ الْوُجُودُ الْحَقِيقِيُّ، التَّابِتُ
خَارِجُ الْحِسْنَ وَالْعَقْلِ، وَلَكِنْ يَأْخُذُ الْحِسْنَ وَالْعَقْلَ
عَنْهُ صُورَةً فَيُسَمِّي أَخْذَهُ إِدْرَاكًا. وَهَذَا كَوْجُودُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْحَيَاةِ وَالنَّبَاتِ وَهُوَ ظَاهِرٌ : هُوَ
الْمَعْرُوفُ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْأَكْثَرُونَ لِلْوُجُودِ مَعْنَى
سِوَاهُ.

وَأَمَّا الْوُجُودُ الْحِسِيبِيُّ : فَهُوَ مَا يَتَمَثَّلُ فِي الْقُوَّةِ
الْبَاسِرَةِ مِنِ الْعَيْنِ لَا وُجُودَ لَهُ خَارِجُ الْعَيْنِ فَيَكُونُ
مَوْجُودًا فِي الْحِسْنِ وَيَخْتَصُّ بِهِ الْحِسْنُ وَلَا يُشَارِكُهُ
غَيْرُهُ - وَذَلِكَ كَمَا يُشَاهِدُهُ النَّائِمُ بَلْ كَمَا يُشَاهِدُهُ
الْمَرِيضُ الْمُتَيَقَّظُ إِذْ قَدْ تَتَمَثَّلُ لَهُ صُورَةً وَلَا وُجُودٌ
لَهَا خَارِجٌ حِسَبٌ، حَتَّى يُشَاهِدَهَا كَمَا يُشَاهِدُهُ سَائِرَ
الْمَوْجُودَاتِ الْخَارِجَةَ عَنْ حِسَبِهِ، بَلْ قَدْ تَتَمَثَّلُ
لِلْأَنْسِيَاءِ وَالْأَوْلَيَاءِ فِي الْيَقْظَةِ وَالصَّحَّةِ صُورَةً
جَمِيلَةً مُحَاكِيَةً لِجَوَاهِرِ الْمَلَائِكَةِ وَيَنْتَهِي إِلَيْهِمُ
الْوَحْيُ وَالْإِلَهَامُ بِوَاسِطَتِهَا ، فَيَتَلَقَّوْنَ مِنْ أَمْرِ

الْمُرْسَلِينَ، وَالدَّاهِرِيُّ كَافِرٌ بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلِيِّ لَأَنَّهُ أَنْكَرَ
مَعَ رَسُولِنَا الرَّسُولَ سَائِرَ الرُّسُلِ. وَهَذَا لَأَنَّ الْكُفَّارَ
حُكْمٌ شَرْعِيٌّ كَالرَّقِ وَالْحُرْيَةِ مَثَلًا، إِذْ مَعْنَاهُ إِبَاحةُ
الْدَّمَ وَالْحُكْمُ بِالْخَلُودِ فِي النَّارِ وَمُدْرِكُهُ شَرْعِيٌّ، فَيُدْرِكُ
إِمَّا بِنَصٍّ وَإِمَّا بِقِيَاسٍ عَلَى مَنْصُوصٍ.

وَقَدْ وَرَدَتِ النُّصُوصُ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَالْتَّحَقَّ بِهِمْ
بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلِيِّ الْبَرَاهِيمَةُ وَالثَّنَوِيَّةُ وَالزَّنَادِقَةُ وَالدَّاهِرِيَّةُ
وَكُلُّهُمْ مُشْرِكُونَ، فَإِنَّهُمْ مُكَذَّبُونَ لِلرَّسُولِ فَكُلُّ كَافِرٍ
مُكَذَّبٍ لِلرَّسُولِ، وَكُلُّ مُكَذَّبٍ فَهُوَ كَافِرٌ - فَهَذِهِ هِيَ
الْعَلَامَةُ الْمُمْطَرَّدَةُ الْمُنْعَكِسَةُ.

الفصل الرابع للوجود خمسة مراتب

أَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مَعَ ظُهُورِهِ تَحْتَهُ غَوْرٌ،
بَلْ تَحْتَهُ كُلُّ الْغَوْرِ لِأَنَّ كُلُّ فِرَقَةٍ تُكَفِّرُ مُخَالِفَهَا
وَتَنْسِبُهُ إِلَى تَكْذِيبِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.
فَالْحَنْبَلِيُّ يُكَفِّرُ الْأَشْعَرِيَّ زَاعِمًا أَنَّهُ كَذَبَ الرَّسُولَ
فِي إِثْبَاتِ الْفُوقِ لِلَّهِ تَعَالَى وَفِي الْإِسْتِوَاءِ عَلَى
الْعَرْشِ؛ وَالْأَشْعَرِيُّ يُكَفِّرُهُ زَاعِمًا أَنَّهُ مُشَبَّهٌ وَكَذَبَ
الرَّسُولَ فِي أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ؛ وَالْأَشْعَرِيُّ يُكَفِّرُ
الْمُعْتَزِلِيَّ زَاعِمًا أَنَّهُ كَذَبَ الرَّسُولَ فِي جَوَازِ رُؤْيَاةِ اللَّهِ
تَعَالَى ، وَفِي إِثْبَاتِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالصَّفَاتِ لَهُ،
وَالْمُعْتَزِلِيَّ يُكَفِّرُ الْأَشْعَرِيَّ زَاعِمًا أَنَّ إِثْبَاتَ الصَّفَاتِ
تَكْفِيرٌ لِلْقُدْمَاءِ وَتَكْذِيبٌ لِلرَّسُولِ فِي التَّوْحِيدِ. وَلَا
يُنَجِّيكَ مِنْ هَذِهِ الْوَرْطَةِ إِلَّا أَنْ تَعْرِفَ حَدَّ التَّكْذِيبِ
وَالتَّصْدِيقِ وَحَقِيقَتِهِمَا فِيهِ فَيَنْكَشِفُ لَكَ عُلُوًّا هَذِهِ
الْفِرَقِ وَإِسْرَافُهَا فِي تَكْفِيرِ بَعْضِهَا بَعْضًا.

أن تُخْتَرَع فِي خَيَالِكَ صُورَةً فِيلٍ وَفَرَسٍ وَلَنْ كُنْتَ مُغْمَضًا عَيْنِيْكَ حَتَّى كَانَكَ تُشَاهِدُهُ وَهُوَ مَوْجُودٌ بِكَمَالِ صُورَتِهِ فِي دِمَاغِكَ لَا فِي الْخَارِجِ.

وَأَمَّا التُّوْجُودُ الْعُقْلِيُّ : فَهُوَ أَنْ يَكُونَ لِلشَّيْءِ رُوحٌ وَحَقِيقَةٌ وَمَعْنَى فِيَّ تَلَقُّى الْعُقْلِ مُجَرَّدًا مَعْنَاهُ دُونَ أَنْ يُثْبِتَ صُورَتِهِ فِي خَيَالٍ أَوْ حِسْنٍ أَوْ خَارِجٍ كَالْيَدِ مَثَلًا فَإِنَّ لَهَا صُورَةً مَحْسُوسَةً وَمُتَخَيَّلَةً وَلَهَا مَعْنَى هُوَ حَقِيقَتُهَا وَهِيَ الْقُدْرَةُ عَلَى الْبَطْشِ ; وَالْقُدْرَةُ عَلَى الْبَطْشِ هِيَ الْيَدُ الْعُقْلِيَّةُ . وَلِلْقَلْمَنْ صُورَةً وَلَكِنَّ حَقِيقَتَهُ مَا تُنْقَشُ بِهِ الْعُلُومُ وَهَذَا يَتَلَقَّاهُ الْعُقْلُ مَنْ غَيْرُ أَنْ يَكُونَ - مَقْرُونًا بِصُورَةِ قَصْبٍ وَخَشْبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الصُّورِ الْخَيَالِيَّةِ وَالْحِسَيَّةِ .

وَأَمَّا التُّوْجُودُ الشَّبَهِيُّ : فَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ نَفْسًا الشَّيْءَ مَوْجُودًا بِصُورَتِهِ وَلَا بِحَقِيقَتِهِ لَا فِي الْخَارِجِ وَلَا فِي الْحِسْنِ وَلَا فِي الْخَيَالِ وَلَا فِي الْعُقْلِ وَلَكِنَّ يَكُونُ الْمَوْجُودُ شَيْئًا أُخْرَ يُشَبِّهُ فِي خَاصَّةٍ مِنْ خَوَاصِهِ وَصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ وَسَقَفَتُهُمْ هَذَا إِذَا ذَكَرْتَ لَكَ مِثَالَهُ فِي التَّأْوِيلَاتِ - فَهَذِهِ مَرَاتِبٌ وَجُودٌ الْأَشْيَاءِ .

الفصل الخامس

المراتب الخمسة وأمثلتها في التأويل

إِسْمَاعِيلُ الْأَنْ أَمْثَلَهُ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ فِي التَّأْوِيلِ أَمَّا التُّوْجُودُ الذَّاتِيُّ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى مِثَالٍ وَهُوَ الذَّي يَجْرِي عَلَى الظَّاهِرِ وَلَا يُتَأَوَّلُ وَهُوَ التُّوْجُودُ الْمُطْلَقُ الْحَقِيقِيُّ وَذَلِكَ كَمَا خَبَارُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

الْغَيْبِ فِي الْيَقِظَةِ مَا يَتَلَاقَاهُ غَيْرُهُمْ فِي النَّوْمِ وَذَلِكَ لِشِدَّةِ صَفَاءِ بَاطِنِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى «فَقَمْتُكُلَّهَا بَشَرًا سَوِيًّا» (١٠).

وَكَمَا أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَثِيرًا وَلَكِنَّ مَا رَأَاهُ فِي صُورَتِهِ إِلَّا مَرَّاتَيْنِ وَكَانَ يَرَاهُ فِي صُورٍ مُخْتَلِفَةٍ يَتَمَثَّلُ بِهَا، وَكَمَا يُرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَنَامِ وَقَدْ قَالَ «مَنْ (رَأَيْ) فِي النَّوْمِ فَقَدْ (رَأَيْ) حَقًّا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي». وَلَا تَكُونُ (رُؤْيَا) بِمَعْنَى اِنْتِقَالِ شَخْصٍ مِنْ رَوْضَةِ الْمَدِينَةِ إِلَى مَوْضِعِ النَّائِمِ بَلْ هِيَ عَلَى سَبِيلِ وُجُودِ صُورَتِهِ فِي حِسْنِ النَّائِمِ فَقَطْ، وَسَبِيلُ ذَلِكَ وَسِرُّهُ طَوِيلٌ، وَقَدْ شَرَحْنَا فِي بَعْضِ الْكُتُبِ . فَإِنَّ كُنْتَ لَا تُصَدِّقُ بِهِ فَصَدَقَ عَيْنَكَ فَإِنَّكَ تَأْخُذُ قَبْسًا مِنْ نَارٍ كَانَتْ نُقطَةً ثُمَّ تُحَرِّكُهُ بِسُرْعَةٍ حَرَكَةً مُسْتَقِيمَةً فَتَرَاهُ خَطًّا مِنْ نَارٍ وَتُحَرِّكُهُ حَرَكَةً مُسْتَدِيرَةً فَتَرَاهُ دَائِرَةً مِنْ نَارٍ وَالدَّائِرَةُ وَالخَطُّ مُشَاهِدَانِ وَهُمَا مَوْجُودَانِ فِي حِسْكٍ لَا فِي الْخَارِجِ عَنْ حِسْكٍ لِيَانَ الْمَوْجُودِ فِي الْخَارِجِ هِيَ نُقطَةٌ فِي كُلِّ حَالٍ، وَإِنَّمَا تَصِيرُ خَطًّا فِي أَوْقَاتٍ مُتَعَاقِبَةٍ فَلَا يَكُونُ الْخَطُّ مَوْجُودًا فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ وَهُوَ ثَابِثٌ فِي مُشَاهَدَتِكَ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ .

وَأَمَّا التُّوْجُودُ الْخَيَالِيُّ : فَهُوَ صُورَةُ هَذِهِ الْمَحْسُوسَاتِ إِذَا غَابَتْ عَنْ حِسْكٍ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ عَلَى

تُذْرِكُ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ أَنْ تَرَى صُورَةَ السَّمَاءِ فِي الْمَرْأَةِ وَبَيْنَ أَنْ تُغْمِضَ عَيْنَيْكَ فَتُذْرِكَ صُورَةَ السَّمَاءِ فِي الْمَرْأَةِ عَلَى سَبِيلِ التَّخَيْلِ.

وَأَمَّا الْوُجُودُ الْخَيَالِيُّ فَمَثَالُهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «كَانَيَ أَنْظَرُ إِلَيَّ يُوفِّنُسَ بْنَ مَتَّى عَلَيْهِ عِبَاءَ تَانِ قَطْوَانِيَّاتَانِ يُلَبِّيَ وَتَجْبِيهُ الْجِبَابَ وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ لَهُ لَبِيْكَ يَا يَوْنُس» وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا إِنْبَاءً عَنْ تَمَثِيلِ الصُّورَةِ فِي خَيْالِهِ إِذْ كَانَ وُجُودُ هَذِهِ الْحَالَةِ سَابِقًا عَلَى وُجُودِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ اتَّعِدَمْ ذَلِكَ فَلَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا فِي الْحَالِ.

وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ أَيْضًا، تَمَثِّلُ هَذَا فِي حِسْبِهِ حَتَّى صَارَ يُشَاهِدُهُ كَمَا يُشَاهِدُ النَّائِمُ الصُّورَ، وَلَكِنْ قَوْلُهُ كَانَيَ أَنْظَرُ يُشَعِّرُ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ حَقِيقَةَ النَّاظَرِ بَلْ كَالنَّاظَرِ، وَالْعَرَضُ التَّفْعِيمُ بِالْمِثَالِ لَا عَيْنٌ هَذِهِ الصُّورَةُ، وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَكُكَّ مَا يَتَمَثِّلُ فِي مَحَكِّ الْخَيَالِ فَيَتَصَوَّرُ أَنَّ يَتَمَثِّلُ فِي مَحَكِّ الْأَبْصَارِ فَيَكُونُ ذَلِكَ مَشَاهِدَةً وَقَدْ مَا يَتَمَيَّزُ بِالْبُرْهَانِ اسْتِحَالَةُ الْمُشَاهِدَةِ فِيمَا يُتَصَوَّرُ فِيهِ التَّخَيْلُ.

وَأَمَّا الْوُجُودُ الْعَقْلِيُّ فَمَثَلُهُ كَثِيرَةٌ فَاقْتَنَعَ مِنْهَا بِمِثَالَيْنِ : أَحَدُهُمَا : قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورَةِ كَبِشٍ أَمْلَحٍ فَيُيَذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ» فَإِنَّمَا قَامَ عِنْدَهُ الْبُرْهَانُ عَلَى أَنَّ الْمَوْتَ عَرَضٌ أَوْ عَدَمٌ عَرَضٌ، وَأَنَّ قَلْبَ الْعَرَضِ جِسْمًا مُسْتَحِيلٍ، غَيْرُ مَقْدُورٍ يُنَزَّلُ الْخَبَرَ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْقِيَامَةِ يُشَاهِدُونَ ذَلِكَ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ الْمَوْتُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مَوْجُودًا فِي حِسْبِهِمْ لَا فِي الْخَارِجِ وَيَكُونُ سَبَبًا لِحُصُولِ الْبَيِّنِينَ بِالْيَاسِ عَنِ الْمَوْتِ بَعْدَ ذَلِكَ إِذْ الْمَذْبُوحُ مَيْتُونِسْ مِنْهُ. وَمَنْ يُقْيمُ عِنْدَهُ هَذَا الْبُرْهَانَ فَعَسَاهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ نَفْسَ الْمَوْتِ يَنْقَلِبُ كَبِشاً فِي ذَاتِهِ وَيَذْبَحُ.

وَسَلَّمَ عَنِ الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ وَالسَّمَوَاتِ السَّبْعِ فَإِنَّهُ يَجْرِي عَلَى ظَاهِرِهِ وَلَا يُتَوَكَّلُ إِذْ هَذِهِ أَجْسَامٌ مَوْجُودَةٌ فِي أَنْفُسِهَا أَدْرِكَتْ بِالْحِسْبِ وَالْخَيَالِ أَوْ لَمْ تُذْرِكَ.

وَأَمَّا الْوُجُودُ الْحِسَبِيُّ فَمَثَلُهُ فِي التَّأْوِيلَاتِ كَثِيرَةٌ وَاقْتَنَعَ مِنْهَا بِمِثَالَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورَةِ كَبِشٍ أَمْلَحٍ فَيُيَذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ» فَإِنَّمَا قَامَ عِنْدَهُ الْبُرْهَانُ عَلَى أَنَّ الْمَوْتَ عَرَضٌ أَوْ عَدَمٌ عَرَضٌ، وَأَنَّ قَلْبَ الْعَرَضِ جِسْمًا مُسْتَحِيلٍ، غَيْرُ مَقْدُورٍ يُنَزَّلُ الْخَبَرَ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْقِيَامَةِ يُشَاهِدُونَ ذَلِكَ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ الْمَوْتُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مَوْجُودًا فِي حِسْبِهِمْ لَا فِي الْخَارِجِ وَيَكُونُ سَبَبًا لِحُصُولِ الْبَيِّنِينَ بِالْيَاسِ عَنِ الْمَوْتِ بَعْدَ ذَلِكَ إِذْ الْمَذْبُوحُ مَيْتُونِسْ مِنْهُ. وَمَنْ يُقْيمُ عِنْدَهُ هَذَا الْبُرْهَانَ فَعَسَاهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ نَفْسَ الْمَوْتِ يَنْقَلِبُ كَبِشاً فِي ذَاتِهِ وَيَذْبَحُ.

الْمِثَالُ الثَّانِي : قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ فِي عَرَضٍ هَذَا الْحَائِطِ» فَمَنْ قَامَ عِنْدَهُ الْبُرْهَانُ عَلَى أَنَّ الْأَجْسَامَ لَا تَتَدَخَّلُ، وَأَنَّ الصَّغِيرَ لَا يَسْعَ الْكَبِيرَ حِمَكَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ نَفْسَ الْجَنَّةِ لَمْ تَنْتَقِلْ إِلَى الْحَائِطِ، لَكِنْ تَمَثِّلُ لِلْحِسْبِ صُورَتُهَا فِي الْحَائِطِ حَتَّى كَانَهُ يُشَاهِدُهَا. وَلَا يُمْتَنَعُ أَنْ يُشَاهِدَ مِثَالَ شَيْءٍ كَبِيرٍ فِي حِرْمٍ صَغِيرٍ كَمَا تُشَاهِدُ السَّمَاءَ فِي مَرَأَةٍ صَغِيرَةٍ، وَيَكُونُ ذَلِكَ إِبْصَارًا مُفَارِقًا لِمُجَرَّدِ تَخَيِّلِ صُورَةِ الْجَنَّةِ إِذْ

فَإِنَّهُ قَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ أَخْرَى (إِنَّ أَوْلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلْمَ) فَإِنَّ لَمْ يَرْجِعْ ذَلِكَ إِلَى الْعَقْلِ تَنَاقُضُ الْحَدِيثَ بَيْنَهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِشَيْءٍ وَاحِدًا سَمَاءً كَثِيرًا” بِاعْتِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ فَيُسَمَّى عَقْلًا بِاعْتِبَارِ ذَاتِهِ وَمَلْكًا بِاعْتِبَارِ نِسْبَتِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي كُونِهِ وَاسْطَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ، وَقَلَمًا بِاعْتِبَارِ إِضَافَتِهِ إِلَى مَا يَصْدُرُ مِنْهُ مِنْ نَقْشِ الْعُلُومِ بِالْهَامِ وَالْوَحْيِيِّ كَمَا يُسَمَّى جَبْرِيلُ (وَحَا بِاعْتِبَارِ ذَاتِهِ وَآمِينًا بِاعْتِبَارِ مَا أُوْدِعَ مِنَ السَّرَّاً)، وَدَامِرَةً بِاعْتِبَارِ قُدْرَتِهِ، وَشَدِيدَ الْقَوْيِ بِاعْتِبَارِ كَمَالِ قُوَّتِهِ، وَمَكِينًا عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ بِاعْتِبَارِ قُرْبِ مَنْزِلَتِهِ، وَمُطَاعًا بِاعْتِبَارِ كُونِهِ مَتَبُوعًا فِي حَقِّ بَعْضِ الْمَلَائِكَةِ، وَهَذَا الْقَائِلُ يَكُونُ قَدْ أَثْبَتَ قَلْمًا وَيَدًا عَقْلِيًّا لَا حِسَيًّا وَخَيَالِيًّا، وَكَذَلِكَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْيَدَ عِبَارَةً عَنْ صِفَةٍ لِلَّهِ تَعَالَى إِمَّا الْقُدْرَةِ أَوْ غَيْرِهَا كَمَا اخْتَلَقَ فِيهِ الْمُتَكَلِّمُونَ.

وَإِمَّا الْوُجُودُ الشَّبَهِيُّ فَمِثَالُهُ الْغَضَبُ وَالشَّوْقُ وَالْفَرَحُ وَالصَّبَرُ وَغَيْرُهُ ذَلِكَ مِمَّا وَرَدَ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّ الْغَضَبَ مَثَلًا حَقِيقَتُهُ أَنَّهُ غَلَيَانٌ دَمٌ الْقَلْبِ لِأَرَادَةِ التَّشَفِيِّ، وَهَذَا لَا يَنْفُكُ عَنْ نَقْصَانِ وَالْأَلْمِ. فَمَنْ قَامَ عِنْدَهُ التَّبْرَهَانُ عَلَى اسْتِحَالَةِ ثُبُوتِ نَفْسِ الْغَضَبِ لِلَّهِ تَعَالَى ثُبُوتًا ذَاتِيًّا وَحِسَيًّا وَخَيَالِيًّا وَعَقْلِيًّا نَزَلَهُ عَلَى ثُبُوتِ صِفَةٍ أَخْرَى يَصْدُرُ مِنْهَا مَا يَصْدُرُ مِنَ الْغَضَبِ كِلَّا لِأَرَادَةِ الْعِقَابِ؛ وَالْأَرَادَةُ لَا تُنَاسِبُ الْغَضَبَ فِي حَقِيقَتِهِ ذَاتِهِ وَلَكِنْ فِي صِفَةِ مِنَ الصَّفَاتِ وَتَقَارُنِهَا، وَأَثَرَ مِنِ الْأَثَارِ يَصْدُرُ عَنْهَا وَهُوَ الْإِلَامُ - فَهَذِهِ دَرَجَاتُ التَّأْوِيلَاتِ.

إِلَى الْخَبَارِ فَكَيْفَ تَتَسَعُ السَّمَاءُ لِعِشْرَةِ أَمْتَالِ الدَّهْنِيَّةِ وَالسَّمَاءُ أَيْضًا مِنَ الدَّهْنِيَّاتِ، وَقَدْ يَقْطَعُ الْمُتَأَوِّلُ هَذَا التَّعَجُّبَ فَيَقُولُ الْمُرَادُ بِهِ تَفَوُقُهُ مَعْنَوِيًّا عَقْلِيًّا لَا حِسَيًّا وَلَا خَيَالِيًّا كَمَا يُقَالُ مَثَلًا هَذِهِ الْجَوْهَرَةُ أَصْعَافُ الْقِرْشِ أَيْ فِي رُوحِ الْمَالِيَّةِ، وَمَعْنَاهَا الْمُذَرِّكُ عَقْلًا دُونَ مِسْاحَتِهَا الْمُذَرِّكَةِ بِالْحِسْنَةِ وَالْخَيْلِ .

الْمِثَالُ الثَّانِيُّ : قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَمْرٌ طِينَةٌ أَدَمٌ بِيَدِهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا» فَقَدْ أَثْبَتَ لِلَّهِ تَعَالَى يَدَهُ وَمَنْ قَامَ عِنْدَهُ التَّبْرَهَانُ عَلَى اسْتِحَالَةِ يَدِ اللَّهِ تَعَالَى هِيَ جَارِحةٌ مَحْسُوْسَةً أَوْ مُتَخَيَّلَةً فَإِنَّهُ يُثْبِتُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ يَدًا (رُوحَانِيَّةً عَقْلِيَّةً، أَعْنِي أَنَّهُ يُثْبِتُ مَعْنَى الْيَدِ وَحَقِيقَتِهَا وَرُوحَهَا دُونَ صُورَتِهَا .

إِنَّ رُوحَ الْيَدِ وَمَعْنَاهَا مَا يَهْيِي بِهِ يَبْطَشُ وَيُقْعَدُ وَيُعْطَى وَيُمْنَعُ وَاللَّهُ تَعَالَى يُعْطِي وَيَمْنَعُ بِوَاسِطَةِ مَلَائِكَتِهِ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «أَوْلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلُ فَقَالَ يَكَ أَعْطِي وَيَكَ أَمْنَعُ» وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْعَقْلِ عَرَضًا كَمَا يُعْتَقِدُ الْمُتَكَلِّمُونَ، إِذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْعَرَضُ أَوْلَى مَخْلُوقٍ، بَلَى، يَكُونُ عِبَارَةً عَنْ ذَاتِ مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يُسَمَّى عَقْلًا مِنْ حَيْثُ يَعْقِلُ الْأَشْيَاءَ يَجْوَهِرَهُ وَذَاتِهِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةِ إِلَى تَعْلِمٍ، وَرَبِّمَا يُسَمَّى قَلْمًا بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ ثُنْقَشُ بِهِ حَقَائِقُ الْعُلُومِ فِي الْأَوَّلِ قُلُوبُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلَيَاءِ وَسَائِرِ الْمَلَائِكَةِ وَحَيَا وَإِلَهَاماً .

الفصل السادس

ضرورة التأويل مفروضة على جميع الفرق

اعلم أن كُلَّ من نَزَّلَ قَوْلًا مِنْ أَقْوَالِ صَاحِبِ
الشَّرْعِ عَلَى دَرَجَةِ مِنْ هَذِهِ الْسَّدَّدَاتِ فَهُوَ مِنْ
الْمُصَدَّقَيْنَ، وَإِنَّمَا التَّكَذِّبُ بِأَنَّ يَنْفِيَ جَمِيعَ هَذِهِ
الْمَعَانِي، وَيَرْعَمُ أَنَّ مَا قَالَهُ لَا مَعْنَى لَهُ وَإِنَّمَا هُوَ
كَذَبٌ مَحْضٌ، وَغَرَضُهُ فِيمَا قَالَهُ التَّلَاقِيسُ أَوْ مَصْلَحةُ
الدُّنْيَا، وَذَلِكَ هُوَ الْكُفْرُ الْمَحْضُ وَالْزَنْدَقَةُ، وَلَا يَلْزَمُ
كُفْرُ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا يُلْزَمُونَ قَانُونَ التَّأْوِيلِ كَمَا
سَنُشِيرُ إِلَيْهِ؛ وَكَيْفَ يُلْزِمُ الْكُفْرُ بِالْتَّأْوِيلِ، وَمَا مِنْ
فَرِيقٍ مِنْ أَهْلِ الْاسْلَامِ إِلَّا وَهُوَ مُضْطَرٌ إِلَيْهِ.

فَأَبْعَدُ النَّاسَ عَنِ التَّأْوِيلِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ
رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَبْعَدُ التَّأْوِيلَاتِ عَنِ الْحَقِيقَةِ
وَأَغْرَبَهَا أَنْ تَجْعَلَ الْكَلَامَ مَجَازًا أَوْ اسْتِعَارَةً وَهُوَ
الْوُجُودُ الْعَقْلَيُّ وَالْوُجُودُ الشَّبَهَيُّ، وَالْحَنْبَلِيُّ مُضْطَرٌ
إِلَيْهِ وَقَائِلٌ بِهِ. فَقَدْ سَمِعْتُ الثَّقَاتَ مِنْ أَئِمَّةِ
الْحَنَابِلَةِ يَبْعَدُونَ يَقُولُونَ إِنَّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلَ
رَحْمَةُ اللَّهِ صَرَّاحٌ بِتَأْوِيلِ ثَلَاثَةِ أَحَادِيثٍ فَقَطْ، أَحَدُهُ
قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ
الَّهِ فِي الْأَرْضِ». وَالثَّانِي : قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
«قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصْبَاعِ الرَّحْمَانِ». وَالثَّالِثُ :
قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنَّمَا لَأَجِدُ
نَفْسَ الرَّحْمَانَ مِنْ قِبَلِ الْيُمْنِ». فَانْظُرُ إِلَيْهِ كَيْفَ أَوْكَدَ هَذَا حَيْثُ قَامَ التَّبْرُهَانُ

عِنْدَهُ عَلَى اسْتِحَالَةِ ظَاهِرَهُ، فَيَقُولُ الْيَمِينُ تَقْبَلُ

فِي الْعِدَادِ تَقْرِبًا إِلَى صَاحِبِهَا، وَالْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يُقْبَلُ
أَيْضًا تَقْرِبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ مِثْكُ الْيَمِينِ لَا فِي
ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِ ذَاتِهِ وَلَكِنْ فِي عَارِضِهِ مِنْ
عَوَارِضِهِ قَسْمِيَّ لِذَلِكَ يَمِينًا - وَهَذَا التَّوْجُودُ هُوَ الَّذِي
سَمِيَّنَاهُ الْوُجُودُ الشَّبَهَيُّ وَهُوَ أَبْعَدُ وَجُوهِ التَّأْوِيلِ،
فَانْظُرْ كَيْفَ اضْطَرَّ إِلَيْهِ أَبْعَدُ النَّاسَ عَنِ التَّأْوِيلِ -
وَكَذَلِكَ لَمَّا اسْتَحَالَ عِنْدَهُ وَجُودُ الْأَصْبَعَيْنِ لِلَّهِ
تَعَالَى حَسَّا، إِذْ مِنْ فَتَشَ عَنْ صَدْرِهِ وَلَمْ يُشَاهِدْ فِيهِ
أَصْبَعَيْنِ، فَتَأَوَّلَهُ عَلَى رُوحِ الْأَصْبَعَيْنِ وَهِيَ الْأَصْبَعُ
الْعَقْلَيَّةُ الْرُّوْحَانِيَّةُ. أَعْنَى أَنَّ رُوحَ الْأَصْبَعِ مَا يَهُوَ يَتَسَرَّ
تَقْلِيْبُ الْأَشْيَاءِ. وَقَلْبُ الْأَنْسَانِ بَيْنَ لُمَّةِ الْمَلَكِ وَلُمَّةِ
الشَّيْطَانِ وَبِهِمَا يُقْلِبُ اللَّهُ تَعَالَى الْقُلُوبَ فَكَيْفَ
بِالْأَصْبَعَيْنِ عَنْهُمَا.

وَإِنَّمَا اقْتَصَرَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى
تَأْوِيلِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْمُتَلَقِّيَّةِ لِأَنَّهُ لَمْ تَظْهَرْ عِنْدَهُ
الْاسْتِحَالَةُ إِلَّا فِي هَذَا الْقَدْرِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُمْعِنًا فِي
الْمُنَظَّرِ الْعَقْلَيِّ وَلَوْ أَمْعَنَ لَظَهَرَ لَهُ ذَلِكَ فِي
الْأَخْتِصَاصِ بِجَهَةِ فَوْقَهِ وَغَيْرِهِ مِمَّا لَمْ يَتَأَلَّهُ
وَالْأَشْعَرِيُّ وَالْمُعْتَزَلِيُّ لِزِيَادَةِ بَحْثِهِمَا تَجَاوِزًا إِلَى
تَأْوِيلِ ظَوَاهِرِ كَثِيرَةٍ وَأَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى الْحَنَابِلَةِ فِي
أُمُورِ الْآخِرَةِ الْأَشْعَرِيَّةِ وَفَقَهُمُ اللَّهُ فَإِنَّهُمْ قَرَرُوا فِيهَا
أَكْثَرُ الظَّوَاهِرِ إِلَّا يَسِيرًا، وَالْمُعْتَزَلَةُ أَشَدُّ مِنْهُمْ
تَوْغِلًا فِي التَّأْوِيلَاتِ وَهُمْ مَعَ هَذَا - أَعْنَى الْأَشْعَرِيَّةَ -
يَضْطَرُّونَ أَيْضًا إِلَى تَأْوِيلِ أُمُورٍ كَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ
قَوْلِهِ إِنَّهُ يُؤْتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، وَكَمَا
وَرَدَ مِنْ وَزْنِ الْأَعْمَالِ بِالْمِيزَانِ.

فَإِنَّهُ إِذَا ثَبَّتْ تَضْمِنُ الْجَمْعَ. فَإِنْ تَعْذَرَ فَالْوُجُودُ
الْحِسَيْيِيُّ فَإِنَّهُ إِنْ ثَبَّتْ تَضْمِنُ مَا بَعْدَهُ. فَإِنْ تَعْذَرَ
فَالْوُجُودُ الْخَيَالِيُّ أَوِ الْعَقْلِيُّ. وَإِنْ تَعْذَرَ فَالْوُجُودُ
الشَّبَهِيُّ الْمَجَازِيُّ وَلَا رُخْصَةٌ لِلْعَدُولِ عَنْ دَرَجَةِ إِلَى مَا
دُونَهَا إِلَّا بِضَرْرَوَةِ الْبُرْهَانِ.

فَيَرْجِعُ الْخِتَالُ عَلَى التَّحْقِيقِ إِلَى الْبَرَاهِينِ : إِذْ
يَقُولُ الْحَنْبَلِيُّ لَا بُرْهَانٌ عَلَى اسْتِحَالَةِ اخْتِصَاصِ
الْبَارِيِّ بِجَهَةِ فَوْقٍ. وَيَقُولُ الْأَشْعَرِيُّ لَا بُرْهَانٌ عَلَى
اسْتِحَالَةِ الرُّؤْيَا. وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ لَا يَرْضى بِمَا ذَكَرَهُ
الْخَصْمُ وَلَا يَرَاهُ دَلِيلًا قَاطِعًا. وَكَيْفَمَا كَانَ فَلَا يَنْبَغِي
أَنْ يُكَفَّرَ كُلُّ فَرِيقٍ خَصْمَهُ بِأَنْ يَرَاهُ غَالِطًا فِي
الْبُرْهَانِ . نَعَمْ يَجُوزُ أَنْ يُسَمِّيَهُ ضَالًا أَوْ مُبْتَدِعًا : أَمَّا
ضَالًا فِيمَنْ حَيَّثَ أَنَّهُ ضَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ عِنْدَهُ ، وَإِمَّا
مُبْتَدِعًا فِيمَنْ حَيَّثَ أَنَّهُ ابْتَدَعَ قَوْلًا لَمْ يُعْهَدْ مِنْ
السَّلَفِ الصَّالِحِ التَّصْرِيْحُ بِهِ إِذْ الْمَشْهُورُ فِيمَا بَيْنَ
السَّلَفِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرَى : فَيَقُولُ الْقَائِلُ لَا يُرَى
بِدُعَةً ، وَتَصْرِيْحُهُ بِتَأْوِيلِ الرُّؤْيَا بِدُعَةً .

بَلْ إِنْ ظَهَرَ عِنْدَهُ أَنَّ تِلْكَ الرُّؤْيَا مَعْنَاهَا
مُشَاهِدَةُ الْقَلْبِ فَيَنْبَغِي أَنَّ لَا يُظْهِرَهُ وَلَا يَذَكُرَهُ
لَأَنَّ السَّلَفَ لَمْ يَذَكُرُوهُ . لَكِنْ عَنِّيْنَدَهُذَا يَقُولُ
الْحَنْبَلِيُّ إِثْبَاتُ الْفَوْقِ لِلَّهِ تَعَالَى مَشْهُورًا عِنْدَ
السَّلَفِ وَلَمْ يَذَكُرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنَّ خَالِقَ الْعَالَمِ لَيْسَ
مُتَّصِلاً بِالْعَالَمِ وَلَا مُنْفَصِلاً وَلَا دَاخِلًا وَلَا خَارِجًا وَأَنَّ
الْجَهَاتَ السَّتَّ خَالِيَّةً عَنْهُ ، وَأَنَّ نِسْبَةَ جَهَةِ فَوْقِ
إِلَيْهِ كَنِسْبَةَ جَهَةِ تَحْتٍ ، فَهَذَا قَوْلٌ بِدُعَةٍ إِذْ الْبِدُعَةُ
عِبَارَةٌ عَنْ أَحْدَاثِ مَقَالَةٍ غَيْرِ مَأْثُورَةٍ عَنِ السَّلَفِ .

فَإِنْ الْأَشْعَرِيُّ أَوَّلَ وَزْنَ الْأَعْمَالِ فَقَالَ تُوزَّنَ
صَحَافَتِ الْأَعْمَالِ وَيَخْلُقُ اللَّهُ فِيهَا أَوْزَانًا بِقَدْرِ
دَرَجَاتِ الْأَعْمَالِ - وَهَذَا رَدٌّ إِلَى الْوُجُودِ الشَّبَهِيِّ
الْبَعِيدِ ، فَإِنَّ الصَّحَافَتَ أَجْسَامًا كُتِبَتْ فِيهَا رُقُوبٌ تَدْكُ
بِالْإِصْطِلَاحِ عَلَى أَعْمَالٍ هِيَ أَعْرَافٌ فَلَيْسَ الْمَوْزُونُ
إِذَا الْعَمَلُ ، بَلْ مَحْلُّ نَقْشٍ يَدْكُ بِالْإِصْطِلَاحِ عَلَى
الْعَمَلِ . وَالْمُعْتَزِلِيُّ تَأْوِيلُ نَفْسِ الْمِيزَانِ وَجَعَلَهُ
كِنْيَاةً عَنْ سَبَبِهِ يَنْكَشِفُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ قَدَارِ عَمَلِهِ
وَهُوَ أَبْعَدُ عَنِ التَّعْسُفِ فِي التَّأْوِيلِ بِوَزْنِ الصَّحَافِ .
وَلَيْسَ الْغَرَضُ تَصْحِيحُ أَحَدِ التَّأْوِيلَيْنِ بَلْ تَعْلَمُ أَنَّ
كُلُّ فَرِيقٍ وَإِنْ بَالَغَ فِي مُلَازَمَةِ الظَّاهِرِ فَهُوَ مُضطَرٌ
إِلَى التَّأْوِيلِ إِلَّا أَنْ يُجَاهِزَ الْحَدَّ فِي الْغَبَابَةِ وَالْتَّجَاهِلِ
فَيَقُولُ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمْيِنُ تَحْقِيقَهُ ، وَالْمَوْتُ وَإِنْ كَانَ
عَرْضًا فِي سَتَحِ الْأَرْضِ فَيَنْتَقِلُ كَبْشًا بِطَرِيقِ الْإِنْقَلَابِ ،
وَالْأَعْمَالُ وَإِنْ كَانَتْ أَعْرَافًا وَقَدْ عَدَمَتْ فَتَنْتَقِلُ إِلَى
الْمِيزَانِ وَيَكُونُ فِيهَا أَعْرَافٌ هِيَ التَّقْلِيلُ ، وَمَنْ يَنْتَهِي
إِلَى هَذَا الْحَدَّ مِنَ الْجَهَلِ فَقَدْ اتَّخَلَعَ مِنْ رَبْقَةِ
الْعَقْلِ .

الفصل السابع شرط التأويل ، البرهان القاطع

فَاسْمَعْ إِلَى قَانُونِ التَّأْوِيلِ : فَقَدْ عَلِمْتَ اتَّفَاقَ
الْفَرْقَ عَلَى هَذِهِ الدَّرَجَاتِ الْخَمْسِ فِي التَّأْوِيلِ وَإِنَّ
شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ حِيَزِ التَّكَذِيبِ . وَاتَّفَقُوا أَيْضًا
عَلَى أَنْ جَوَازَ ذَلِكَ مَوْقُوفٌ عَلَى قِيَامِ الْبُرْهَانِ عَلَى
اسْتِحَالَةِ الظَّاهِرِ ، وَالظَّاهِرُ الْأَوَّلُ هُوَ الْوُجُودُ الْذَّاتِيُّ

ولكن لا يستحيل منهم الاختلاف أيضاً إما لقصور بعضهم عن إدراك تمام شرطه. وإما في رجوعهم في النظر إلى محرف القرية والطبع دون الوزن بالميرزان، كالتالي يرجع بعد تمام تعليم العروض في الشعر إلى الذوق لاستئصاله عرض كُت شعر على العروض. فلا يبعد أن يغلط، وإما لاختلافهم في العلوم التي هي مقدمات البراهين. فإن من العلوم التي هي أصول البراهين تجريبية وتوارثية وغيرها، والناس يختلفون في التجربة والتواتر فقد يتواتر عند واحد ما لا يتواتر عند غيره. وقد يتواتر تجربة ما لا يتواتر غيره. وإنما لالتباس الكلمات قضيوا الوهم بقضيائ العقول. وإنما لالتباس الكلمات المشهورة المحمدودة بالضروريات والآوليات كما فصلنا ذلك في كتاب (محك النظر) ولكن بالجملة إذا حصلوا تلك الموارين وحققوها أمكناهم الوقوف عند ترك العناد، على موقع الغلط على يسر.

الفصل الثامن :

تأويل أصول العقائد بدون برهان قاطع يؤدي إلى التكفير

من الناس من يجادل إلى التأويل بعلبات الظنون من غير برهان قاطع ولا ينبغي أن يجادل أياً إلى كفره في كُل مقام بذلك يُنظر فيه. فإن كان تأويله في أمر لا يتعلّق بأصول العقائد و مهماتها. فلا يكفره وذلك كقول بعض الصوفية إن القراءة ببرؤية الخليل عليه السلام الكوكب والقمر والشمس،

وعند هذا يتضح لكن أن هاهنا مقامين أحدهما : مقام عوام الخلق. والحق فيه الاتباع والكف عن تغيير الظواهر (أساً والحدّر) عن إبداع التصريح بتاويل لم تصرح به الصحابة وحسنة باب السؤال رأساً والرجز عن الخوض في الكلام والبحث، واتباع ما تشابه من الكتاب والسنّة. كما روي عن عمر رضي الله عنه أنه سأله سائل عن آيتين متعارضتين فعلاه بالدرة، وكما روى عن مالك رحمة الله أنه سُئل عن الاستواء فقال الاستواء معلوم والإيمان به واجب والكيفية مجهولة، والسؤال عنده بدعة.

المقام الثاني : بين النظار الذين اضطربت عقائدهم الماثورة المروية فينبغي أن يكون بحثهم يقدر الضرورة، وتركهم الظاهر بضرورة البرهان القاطع. ولا ينبغي أن يكفر بعضهم ببعضه لأن يراه غالباً فيما يعتقد برهاناً فإن ذلك ليس أمراً هيناً، سهل المدرك ولكن للبرهان بينهم قانون متفق عليه يعترف كلهم به. فإنهم إذا لم يتتفقوا في الميرزان لم يمكنهم رفع الخلاف بالوزن، وقد ذكرنا الموارين الخمسة في كتاب (القسطاس المستقيم) وهي التي لا يتصور الخلاف فيها بعد فهمها أصلاً، بل يعترف كُل من فهمها بأنها مدارك اليقين قطعاً والمحصلون لها يسهّل عليهم عقد الإنصاف والانتصاف وكشف غطاء ورقة الاختلاف.

قد ذكر حال نهايته، ثم جمع إلى ذكر بدأيته - فهذه وأمثالها ظنون يظنونا برأهين من لا يعرفحقيقة البرهان وشرطه - فهذا جنس تأويلهم.

وقد تأولوا العصا والتعلين في قوله تعالى (فاحلع نعليك) (13) و قوله (وألك ما في يمينك) (14) ولعك الظن في مثل هذه الأمور التي لا تتعلق بأصول الاعتقاد تجربة مجرى البرهان في أصول الاعتقاد فلا يكفر فيه ولا يبدع . نعم إن كان فتح هذا الباب يؤدي إلى تشويش قلوب العوام فيبدع به خاصة صاحبه في كلك ما لم يؤثر عن السلف ذكره، ويقرب منه قوله بعض الباطنية أن عجل السامري موالاً إذ كيف يخلو خلق كثير عن عاقل يعلم أن المستخدم من الذهب لا يكون الله . وهذا أيضاً ظن إذ لا يستحيل أن تنتهي طائفة من الناس إليه كعبدة الأصنام، وكونه نادراً لا يورث يقيناً.

وأما ما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة فيجب تكفيه من يغير الظاهر بغير البرهان قاطع، كالذى ينكر حشر الأجساد وينكر العقوبات الحسية في الآخرة يظنون وأوهام واستبعادات من غير برهان قاطع فيجب تكفيه قطعاً إذ لا يغير برهان على استحالة رد الأرواح إلى الأجساد، وذكر ذلك عظيم الفرق في الدين فيجب تكفيه كلك من تعلق به وهو مذهب أكثر الفلاسفة .

13 - سورة طه : 12 .

14 - راجع : سورة طه : 19 .

وقوله «هذا ربي» (11) غير ظاهرها، بلك هي جواهر نورانية ملكية ونورانية عقلية لا حسية ولها درجات في الكمال . ونسبة ما بينها في التفاوت كنسبة الكوكب والقمر والسماء . ويستدك عليه بيان الخليل عليه السلام أجي من أن يعتقد في جسم الله حتى يحتاج إلى أن يشاهد أقوله .

افتري أنه لو لم يألف أكان يتذذه إلهًا ولو لم يعرف استحالة الالهية من حيث كونها جسمًا مقدراً واستدك بأنه كيف يمكن أن يكون أول ما رأى الكوكب والسماء هي الظهور وهي أول ما يرى واستدك بيان الله تعالى قال أولاً «وكذلك نرى أبراهيم ملوك السماء والأرض» (12) ثم حكى هذا القول فكيف يمكن أن يتوجه ذلك بعده كشف الملوك له - وهذه دلالات ظنية وليس برهان .

أما قوله هو أجي من ذلك فقد قيل إنه كان صبياً لما جرى له ذلك ولا يبعد أن يخطر لمن سيكون نبياً في صيام مثل هذا الخاطر ثم يتجلوا به على قرب ولا يبعد أن تكون دلالة الأقول على حدوثه اظهراً من دلالة التقدير والجسمية وأما رؤية الكوكب أولاً فقد روي أنه كان محبوساً في صيام في غار وإنما خرج بالليل .

واما قوله تعالى أولاً (وكذلك نرى أبراهيم ملوك السماء والأرض) فيجوز أن يكون الله تعالى

11 - سورة الأنعام : 76 .

12 - سورة الأنعام : 75 .

خلافه، والفلسفى لا يقتصر على مجاوزته للظاهر على ما يقى التأويل على قرب أو على بعد. وأما الرندقة المطلقة فهو أن تذكر أصل المعاد عقلياً وحسيناً وتنكر الصانع للعالم أصلاً ورأساً. وأما إثبات المعاد بنوع عقلى مع نفي الالام والذات الحسية وإثبات الصانع مع نفي علمه بتفاصيل العلوم فهي زندقة مقيدة بنوع اعتراف يصدق الأنبياء. وظاهر ظنني" - والعلم عند الله - أن هؤلاء هم المرادون بقوله عليه الصلاة والسلام "ستفترق أمتي بضعا وسبعين فرقة كلئتم في الجنة إلا زندقة وهي فرقه" هذا القول الحديث في بعض الروايات. وظاهر الحديث يدك على أنه أراد به زندقة من أمته، إذ قال "ستفترق أمتي" ومن لم يعترف بنيوته فليس من أمته والذين ينكرون أصل المعاد وأصل الصانع فليسوا معتبرين بنيوته إذ يزعمون أن الموت عدم ماحض، وأن العالم لم يزك كذلك موجوداً ببنفسه من غير صانع ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . وينسبون الأنبياء إلى التلبيس. فلا يمكن نسبتهم إلى الأمة فإذاً معنى لزندقة هذه الأمة إلا ما ذكرناه.

الفصل التاسع :

التكفير بين الاعتبارات النظرية والشرعية : مفهوم الضرر
إعلم أن شرح ما يكفر به وما لا يكفر به يستدعي تفصيلاً طويلاً يقتصر إلى ذكر كُل المقالات والمذاهب، وذكر شبهة كُل واحد، وذليله ووجه

وكذلك يجب تكذيب من قال منهم أن الله تعالى لا يعلم إلا نفسه أو لا يعلم إلا الكليات. فاما المأمور الجزئية المتعلقة بالأشخاص فلا يعلمهما، لأن ذلك تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم قطعاً وليس من قبيل الدراجات التي ذكرناها في التأويل، إذ أدلة القرآن والأخبار على تفهيم حشر الأجساد وتفهيم تعلق علم الله تعالى بمقصيل كُل ما يجري على الأشخاص مجاوزاً جداً لا يقى التأويل . وهم معتبرون بيان هذا ليس من التأويل ولكن قالوا لما كان صلاح الخلق في أن يعتقدوا حشر الأجساد لقصور عقولهم عن فهم المعاد العقلي و كان صلاحتهم في قلوبهم جاز للرسول ليورث ذلك رغبة و رهبة في قلوبهم بذلك وليس يكذب من أصلح غيره فقام ما فيه صلاحه وإن لم يكن كما قاله.

وهذا القول باطلاً قطعاً لأنَّه تصريح بالتكذيب، ثم طلب عذر في أنه لم يكذب، ويجب إجلال منصب النبوة عن هذه الرذيلة في الصدق وإصلاح الخلق به مذودة عن الكذب وهذه أول درجات الرندقة، وهي رتبة بين الاعتزال وبين الرندقة المطلقة فإن المعتزلة يقرب منها جهم من مذاهجه الفلاسفة إلا في هذا الأمر الواحد، وهو أن المعتزلي لا يجوز الكذب على الرسول عليه السلام بمتى هذا العذر، بل يتوسل الظاهر مهما ظهر له بالبرهان

فلوْ قالَ قَائِلٌ "مَثْلًا الْبَيْتُ الَّذِي يُمْكِنُ لِيُسْأَلُ
الْكَعْبَةُ الَّتِي أَمْرَ اللَّهُ تَعَالَى بِحِجَّتِهِ فَهَذَا كُفْرٌ" إِذْ
قَدْ ثَبَّتْ تَوَاتِرًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
خِلَافَهُ، وَلَوْ أَنْكَرَ شَهادَةَ الرَّسُولِ لِذَلِكَ الْبَيْتِ بِأَنَّهُ
الْكَعْبَةُ لَمْ يَنْفَعْهُ إِنْكَارُهُ، بَلْ ، يَعْلَمُ قَطْعًا أَنَّهُ
مُعَانِدٌ فِي إِنْكَارِهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَرِيبَ عَهْدِ الْإِسْلَامِ،
وَلَمْ يَتَوَاتِرْ عِنْدَهُ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ مِنْ نَسَبِ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى)
الْفَاحِشَةِ، وَقَدْ نَزَّلَ الْقُرْآنُ بِرَاءَتِهَا فَهُوَ كَافِرٌ، لَأَنَّ
هَذَا وَمِثْلَهُ لَا يُمْكِنُ إِلَّا بِتَكْذِيبِ الرَّسُولِ أَوْ إِنْكَارِ
الْتَّوَاتِرِ، وَالْتَّوَاتِرُ يَنْكُرُهُ الْإِنْسَانُ بِلِسَانِهِ وَلَا يُمْكِنُهُ
أَنْ يَجْهَلَهُ بِقَلْبِهِ. نَعَمْ لَوْ أَنْكَرَ مَا ثَبَّتْ بِإِخْبَارِ
الْأَحَادِيدِ فَلَا يَلْزَمُهُ بِهِ الْكُفُرُ وَلَوْ أَنْكَرَ مَا ثَبَّتْ
بِالْجَمَاعِ فَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ، لَأَنَّ مَعْرِفَةَ كُوْنِ الْجَمَاعِ حُجَّةٌ
قَاطِعَةٌ فِيهِ غُمُوضٌ يَعْرُفُهُ الْمُحْمَدُلُونَ لِعِلْمِ أَصْوَلِ
الْفِقْهِ. وَأَنْكَرَ النَّظَامُ كُوْنَ الْجَمَاعِ حُجَّةً أَصْلًا فَصَارَ
كُوْنُ الْجَمَاعِ حُجَّةً مُخْتَلِفًا فِيهِ فَهَذَا حُكْمُ الْفُرُوعِ.

وَأَمَّا الْأَصْوَلُ الْتَّلَاثَةُ وَكُلُّ مَا لَمْ يَحْتَمِلِ التَّأْوِيلَ
فِي نَفْسِهِ وَتَوَاتِرَ نَقْلِهِ وَلَمْ يَتَصَوَّرْ أَنْ يَقُولَ بِالْبُرْهَانِ
عَلَى خِلَافِهِ فَمُخَالَفَتُهُ تَكْذِيبٌ مَحْضٌ. وَمِثْلَهُ مَا
ذَكَرْنَاهُ مِنْ حَسْرِ الْأَجْسَادِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَلِحَاظَةِ عِلْمِ
اللَّهِ تَعَالَى بِتَفَاصِيلِ الْأَمْوَارِ. وَمَا يَتَطَرَّفُ إِلَيْهِ احْتِمَالُ
الْتَّأْوِيلِ وَلَوْ بِالْمَجَازِ الْبَعِيدِ فَنَنْبَرِزُ فِيهِ إِلَى الْبُرْهَانِ
فَإِنْ كَانَ قَاطِعًا وَجَبَ الْقَوْلُ بِهِ، وَلَكِنْ إِنْ كَانَ
فِي إِظْهَارِهِ مَعَ الْعَوَامَ ضَرَرٌ لِقُصُورِ فَهْمِهِمْ فَإِظْهَارُهُ
بِدُّعَةٍ وَإِنْ لَمْ يَكُنَ الْبُرْهَانُ قَطْعَيْنَا لِكِنْ يُفِيدُ ظَنَّا

بَعْدِهِ عَنِ الظَّاهِرِ، وَوَجْهُ تَأْوِيلِهِ وَذَلِكَ لَا يَحْوِيهِ
مُجَلَّدَاتٍ" وَلَا تَنْسَعُ لِشَرْحِ ذَلِكَ أَوْ قَاتِي فَاقْتَنَعَ الْآنُ
بِوَصِيَّةٍ وَقَانُونٍ.

أَمَّا الْوَصِيَّةُ فَإِنْ تَكُفَ لِسَانَكَ عَنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ مَا
أَمْكَنَكَ مَادَامُوا قَاتِلِيْنَ لِإِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ" رَسُولُ اللَّهِ
عَيْرُ مَنَاقِصِيْنَ لَهُمَا وَالْمُنَاقِصَةُ تَجْوِيزُهُمُ الْكَذِبَ عَلَى
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعُذْرٍ أَوْ غَيْرِ عُذْرٍ
فَإِنَّ التَّفْكِيرَ فِيهِ خَطَّرٌ وَالسُّكُوتُ لَا خَطَّرٌ فِيهِ.

وَأَمَّا الْقَانُونُ فَهُوَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ النَّظَرِيَّاتِ قِسْمَانَ.
قِسْمٌ يَتَعَلَّفُ بِأَصْوَلِ الْقَوْاعِدِ، وَقِسْمٌ يَتَعَلَّفُ
بِالْفُرُوعِ، وَأَصْوَلُ الْإِيمَانِ ثَلَاثَةٌ" : الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ
وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَاعِدَاهُ فُرُوعٌ". وَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا تَكْفِيرٌ فِي
الْفُرُوعِ أَصْلًا إِلَّا فِي مَسَأَلَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ أَنْ يَنْكُرُ أَصْلًا
دِيْنِيْنِيْا عِلْمًا مِنْ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِالْتَّوَاتِرِ، لَكِنْ فِي بَعْضِهَا تَخْطِئَةً" كَمَا فِي الْفِقْهِيَّاتِ
وَفِي بَعْضِهَا تَبْدِيْعٌ" كَالْخَطَّاءِ الْمُتَعَلَّفِ بِالإِمَامَةِ
وَأَحْوَالِ الصَّحَابَةِ.

وَاعْلَمُ أَنَّ الْخَطَّاءَ فِي أَصْلِ الْإِمَامَةِ وَتَعْبِينَهَا
وَشُرُوطُهَا وَمَا يَتَعَلَّفُ بِهَا لَا يُوجِبُ شَيْءًا مِنْهُ تَكْفِيرًا.
فَقَدْ أَنْكَرَ ابْنُ كِيْسَانَ أَصْلَكَ وَجْهُ الْإِمَامَةِ وَلَا يَلْزَمُ
تَكْفِيرُهُ وَلَا يُلْقَى إِلَى قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ أَمْرَ الْإِمَامَةِ
وَيَجْعَلُونَ الْإِيمَانَ بِالْإِمَامَ مَقْرُونًا بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ
وَلَا إِلَى حُصُومِهِ الْمُكَفَّرُونَ لَهُمْ بِمُجَرَّدِ مَذْهَبِهِمْ
فِي الْإِمَامَةِ فَكُلُّ ذَلِكَ إِسْرَافٌ إِذْ لَيْسَ فِي وَاحِدٍ مِنْ
الْقَوْلَيْنِ تَكْذِيبٌ لِرَسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْلًا،
وَمَهْمَمًا وَجِدَ التَّكْذِيبُ وَجَبَ التَّكْفِيرُ وَإِنْ كَانَ فِي
الْفُرُوعِ.

عن التكفير أولى، والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل.

ولا بد من التنبية على قاعدة أخرى وهو أن المخالف قد يخالف نصاً متوانياً ويزعم أنه مؤول، ولكن ذكر تأويله لا انقسام له أصلاً في اللسان لا على بعد ولا على قرب، فذلك كفر. وصاحب مكذب وإن كان يزعم أنه مؤول: مثاله: ما رأيته في كلام بعض الباطنيين أن الله تعالى واحد بمعنى أنه يعطي الواحدة ويخلقها، وعالم بمعنى أنه يعطي العلم لغيره ويخلقها، وموجود بمعنى أنه يوجد غيره، وإنما يكمن واحداً في نفسه وموجوداً وعالمًا على معنى اتصافه فلا. وهذا كفر صراغ لأن حمل الواحدة على إيجاد الواحدة ليس من التأويل في شيء ولا تحتمله لغة العرب أصلاً، ولو كان خالق الواحدة يسمى واحداً لخلقه الواحدة لسمى ثلاثة وأربعاً لأنه خلق الأعداد أيضاً. فمثلاً هذه المقالات تكذيبات عبر عنها بالتأويلات.

الفصل العاشر:

شروط التواتر والاجماع والبرهان

قد فهمت من هذه التكفيارات أن النظر يتعالق بما مور.

أحد هما: أن النص الشرعي الذي عدك به عن ظاهره هكذا يحتمل التأويل أم لا؟ فإن احتمل فهـ هو قريب أم بعيد؟ ومعرفة ما يقتلك التأويل وما لا يقتلك التأويل ليس بالهين بل لا يستنقذ به إلا

غالباً، وكان مع ذلك لا يعلم ضرره في الدين كنفي المعتزلي الرؤية عن الله تعالى. فهذه بدعة وليس بـكفر.

وأما ما يظهر له ضرر، فيقع في محك الاجتهاد والنظر فيحتمل أن يكفر ويحتمل أن لا يكفر. ومن جنس ذلك ما يدعى بعـضـ من يدعى التصوـفـ أنه قد بلـغـ حالةـ بيـنهـ وبين الله تعالى اـسـقطـ عنهـ الصـلـوةـ وـحـكـ لهـ شـرـبـ الخـمـرـ والمـعـاصـيـ وأـكـلـ مـالـ السـلـطـانـ. فـهـذاـ مـمـنـ لاـ شـكـ فـيـ وجـوبـ قـتـلـهـ وإنـ كانـ فـيـ الـحـكـمـ بـخـلـودـهـ فـيـ النـارـ نـظـرـ، وـقـتـلـ مـثـلـ هـذـاـ أـفـضـلـ مـنـ قـتـلـ مـائـةـ كـافـرـ إـذـ ضـرـرـهـ فـيـ الدـيـنـ أـعـظـمـ وـيـنـفـتـحـ بـهـ بـابـ مـنـ الإـبـاحـةـ لـاـ يـنـسـدـ.

وـضـرـرـ هـذـاـ فـوـقـ ضـرـرـ مـنـ يـقـوـكـ بـالـابـاحـةـ مـطـلـقاـ، فـإـنـهـ يـمـنـعـ عـنـ الـإـصـغـاءـ إـلـيـهـ لـظـهـورـ كـفـرـهـ. وـأـمـاـ هـذـاـ فـإـنـهـ يـهـدـمـ الشـرـعـ مـنـ الشـرـعـ وـيـزـعـمـ أـنـهـ لـمـ يـرـتـكـبـ فـيـهـ إـلاـ تـحـصـيـصـ عـمـومـ إـذـ خـصـصـ عـمـومـ التـكـلـيـفـاتـ بـمـنـ لـيـسـ لـهـ مـثـلـ درـجـتـهـ فـيـ الدـيـنـ، وـرـبـمـاـ، يـزـعـمـ أـنـهـ يـلـاـ بـسـ وـيـقـارـفـ الـمـعـاصـيـ بـظـاهـرـهـ وـهـوـ بـبـاطـنـهـ بـرـيـءـ عـنـهـاـ. وـيـتـدـاعـيـ هـذـاـ إـلـيـ أـنـ يـدـعـيـ كـلـ فـاسـقـ مـثـلـ حـالـهـ وـيـتـحـلـ بـهـ عـصـامـ الدـيـنـ.

وـلـاـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـظـنـ أـنـ التـكـفـيرـ وـنـفـيـهـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـدـرـكـ قـطـعاـ فـيـ كـلـ مـقـامـ، بـلـ التـكـفـيرـ حـكـمـ شـرـعـيـ يـرـجـعـ إـلـيـ إـبـاحـةـ الـمـالـ وـسـقـكـ الدـمـ وـالـحـكـمـ بـالـخـلـودـ فـيـ النـارـ فـمـاـ خـذـهـ كـمـاـ خـذـ سـائـرـ الـأـحـكـامـ الـشـرـعـيـةـ. فـتـارـةـ يـدـرـكـ بـيـقـيـنـ وـتـارـةـ بـيـظـرـ غـالـبـ وـتـارـةـ يـتـرـدـدـ فـيـهـ، وـمـهـمـاـ حـصـكـ تـرـدـدـ فـالـتـوقـفـ فـيـهـ

وَاحِدٌ اتَّفَاقاً بِلِفْظٍ صَرِيحٍ، ثُمَّ يَسْتَمِرُوا عَلَيْهِ مَرَّةً عِنْدَ قَوْمٍ وَإِلَى تِمَامِ انْقِرَاضِ الْعَصْرِ عِنْدَ قَوْمٍ، أَوْ يُكَاتِبُهُمْ إِمَامٌ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ فِيَّا خُذْ فَتَأْوِيهِمْ فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ بِحِيَثُ تَتَفَقَّ أَقْوَافُهُمْ اتَّفَاقاً صَرِيقاً حَتَّى يَمْتَنِعَ الرُّجُوعُ عَنْهُ وَالْخِلَافُ بَعْدَهُ.

ثُمَّ النَّظَرُ فِي أَنَّ مِنْ خَالِفَ بَعْدَهُ هَذَا يَكْفُرُ؟ لَانَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ إِذَا جَازَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنَّ يَخْتَلِفُوا فِيْهِمْ تَوَافُقُهُمْ عَلَى اتَّفَاقٍ وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَرْجِعَ بَعْدَ ذَلِكَ. وَهَذَا غَامِضٌ أَيْضًا.

الثَّالِثُ : النَّظَرُ فِي أَنَّ صَاحِبَ الْمَقَالِ هَذَا تَوَاتِرٌ عِنْدَهُ الْخَبَرُ أَوْ هَذَا بَلَاغُهُ الْاجْمَاعُ إِذْ كُلُّ مَنْ يُولَدُ لَا تَكُونُ الْأُمُورُ عِنْدَهُ مُتَوَالِثَةً وَلَا مَوَاضِعُ الْاجْمَاعِ عِنْدَهُ مُتَمَيِّزَةٌ عَنْ مَوَاضِعِ الْخِلَافِ وَإِنَّمَا يُدْرِكُ ذَلِكَ شَيْئاً فَشَيْئاً، وَإِنَّمَا يُعْرَفُ ذَلِكَ مِنْ مُطَالِعَةِ الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ فِي الْاِخْتِلَافِ وَالْاجْمَاعِ لِلْسَّلْفِ. ثُمَّ لَا يَحْصُلُ الْعِلْمُ فِي ذَلِكَ بِمُطَالِعَةِ تَصْنِيفٍ وَلَا تَصْنِيفَيْنِ، إِذْ لَا يَحْصُلُ تَوَاتِرُ الْاجْمَاعِ بِهِ. وَقَدْ صَنَفَ أَبُو بَكْرُ الْفَارَسِيُّ رَحْمَهُ اللَّهُ كِتَاباً فِي مَسَائِلِ الْاجْمَاعِ وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْهُ وَخَوْلَفَ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْمَسَائِلِ فَإِذَا مِنْ خَالِفَ الْاجْمَاعَ وَلَمْ يَتَبَتَّتْ عِنْدَهُ بَعْدٌ فَهُوَ جَاهِلٌ مُخْطَبٌ وَلَيْسَ بِمُكَذِّبٍ فَلَا يُمْكِنُ تَكْفِيرُهُ. وَالْاسْتِقلَالُ بِمَعْرِفَةِ التَّحْقِيقِ فِي هَذَا الْيُسْ بِيَسِيرٍ.

الرَّابِعُ : النَّظَرُ فِي دَلِيلِ الْبَاعِثِ لَهُ عَلَى مُخَالَفَةِ الظَّاهِرِ أَهُوَ عَلَى شَرْطِ الْبُرْهَانِ أَمْ لَا؟ وَمَعْرِفَةُ شَرْطِ الْبُرْهَانِ لَا يُمْكِنُ شَرْحُهُ إِلَّا فِي مُجَلَّدَاتٍ. وَمَا ذَكَرْنَا

الْمَاهِرُ التَّحَادِقُ فِي عِلْمِ الْلُّغَةِ الْعَارِفُ بِأَصْوْلِهَا، ثُمَّ يَعَاذَةُ الْعَرَبُ فِي الْاسْتِعْمَالِ فِي اسْتِعْلَامِهَا وَتَجْوِزُهَا وَمَنْهَا جِهَاتِهَا فِي ضُرُوبِ الْأَمْثَالِ.

الثَّانِي : فِي النَّصِّ الْمُتَرْوِكِ أَنَّهُ ثَبَّتَ تَوَاتِرًا أَوْ أَحَادِيدًا أَوْ بِالْاجْمَاعِ الْمُجَرَّدِ فَلَمْ ثَبَّتْ تَوَاتِرًا فَهُوَ عَلَى شَرْطِ التَّوَاتِرِ أَمْ لَا، إِذْ بِمَا يُظَنُّ الْمُسْتَفَيِضُ تَوَاتِرًا، وَهَذَا التَّوَاتِرُ مَا لَا يُمْكِنُ الشَّكُّ فِيهِ كَالْعِلْمِ بِوُجُودِ الْأَنْبِيَاءِ وَوُجُودِ الْبِلَادِ الْمَشْهُورَةِ وَغَيْرِهَا، وَأَنَّهُ مُتُوَاتِرٌ فِي الْأَعْصَارِ كُلُّهَا عَصْرًا بَعْدَ عَصْرِ إِلَيْهِ زَمَانَ النَّبِيَّةِ . فَهَذَا يُتَصَوَّرُ أَنَّ يَكُونَ قَدْ نَقَصَ عَدَدُ التَّوَاتِرِ فِي عَصْرِ مِنَ الْأَعْصَارِ؟ وَشَرْطُ التَّوَاتِرِ أَنَّ لَا يُحْتَمِلَ ذَلِكَ كَمَا فِي الْقُرْآنِ أَمَّا فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ فَيَغْمُضُ مَدْرَكُ ذَلِكَ جِدًا وَلَا يَسْتَقِلُ بِإِدْرَاكِهِ إِلَيْهِ الْبَاحِثُونَ عَنْ كُتُبِ التَّوَارِيخِ وَأَحْوَالِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَّةِ وَكُتُبِ الْأَحَادِيَّةِ، وَأَحْوَالِ الرِّجَالِ وَأَغْرِيَاضِهِمْ فِي نَقْلِ الْمَقَالَاتِ إِذْ قَدْ يُوجَدُ عَدَدُ التَّوَاتِرِ فِي كُلِّ عَصْرٍ لَا يَحْصُلُ بِهِ الْعِلْمُ إِذْ كَانَ يُتَصَوَّرُ أَنَّ يَكُونَ لِلْجَمِيعِ الْكَثِيرِ رَأِيَّةً فِي الْسَّتَّوَافُقِ لَا سِيمَاءَ بَعْدَ وَقْعِ التَّعَصُّبِ بَيْنَ أَرْبَابِ الْمَذاهِبِ وَلِذَلِكَ تَرَى الرَّوَافِضُ يَدْعَوْنَ النَّصِّ عَلَى عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْإِمَامَةِ لِتَوَاتِرِهِ عِنْهُمْ، وَتَوَاتِرُ عِنْدَهُمْ خُصُومُهُمْ فِي أَشْيَاءِ كَثِيرَةٍ خِلَافٌ مَا تَوَاتَرُ عِنْدَهُمْ لِشِدَّةِ تَوَاتِرِ الرَّوَافِضِ عَلَى إِقَامَةِ أَكَادِيَّيْهِمْ وَاتِّبَاعِهَا.

وَأَمَّا مَا يَسْتَنِدُ إِلَى الْاجْمَاعِ فَدَرَكُ ذَلِكَ مِنْ أَغْمَضِ الْأَشْيَاءِ إِذْ شَرْطُهُ أَنَّ يَجْتَمِعَ أَهْلُ الْحَكْمِ وَالْعَقْدِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيَتَفَقَّوْنَ عَلَى أَمْرٍ

الناس ولو ينكث من الايدي من لا يدري لفک الخلاف
بين الخلق.

الفصل الحادي عشر

نقد الكلام وتمجيد النور الالهي

من أشد الناس غلواً وإسرافاً طائفه من المتكلمين كفروا عوام المسلمين، وزعموا أنَّ لا يعْرِفُ الْكَلَامَ مَعْرِفَتَنَا وَلَمْ يَعْرِفِ الْعَقَائِدَ الشَّرِعِيَّةَ بِأَدْلِتَنَا الَّتِي حَرَرَنَا هُوَ كَافِرٌ - فَهُوَ لَا يُضِيقُوا رَحْمَةَ اللَّهِ الْوَاسِعَةَ عَلَى عِبَادِهِ أَوْلَى، وَجَعَلُوا الْجَنَّةَ وَقَفَا عَلَى شِرْدَمَةٍ يَسِيرَةٍ مِّنَ الْمُتَكَلَّمِينَ ثُمَّ جَهَلُوا مَا تَوَاءَرَ مِنَ السُّنَّةِ ثَانِيَاً، إِذْ ظَهَرَ لَهُمْ فِي عَصْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَصْرِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حُكْمُهُمْ بِإِسْلَامٍ طَوَّافِ مِنْ أَجْلَافِ الْسَّعَرَبِ كَانُوا مَشْغُولِينَ بِعِبَادَةِ الْوَتْنِ وَلَمْ يَشْتَغِلُوا بِعِلْمِ الدِّلِيلِ وَلَوْ اشْتَغَلُوا بِهِ لَمْ يَقْهِمُوهُ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ مُذْرِكَ الْإِيمَانِ الْكَلَامُ وَالْأَدَلَّةُ الْمُجَرَّدَةُ وَالْتَّقْسِيمَاتُ الْمُرَتَّبَةُ فَقَدْ أَبْدَعَ حَدَّ الْإِبْدَاعِ، بَلِ الْإِيمَانُ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِ عَبْدِهِ عَطِيَّةً وَهَدِيَّةً مِّنْ عَنْدِهِ تَارَةً يَبْيَنَهُ مِنَ الْبَاطِنِ لَا يُمْكِنُهُ التَّعْبِيرُ عَنْهَا. وَتَارَةً بِسَبَبِ رُؤْيَا فِي الْمَنَامِ، وَتَارَةً بِمُشَاهَدَةِ حَالِ رَجُلٍ مُتَدَيِّنٍ وَسِرَایَةِ نُورِهِ إِلَيْهِ عَنْدَ صُحبَتِهِ وَمُجَالِسَتِهِ، وَتَارَةً بِقَرِينَةِ حَالٍ.

فَقَدْ جَاءَ أَعْرَابِيًّا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاهِدًا بِهِ مُنْكِرًا فَلَمَّا وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَى طَلْعَتِهِ

فِي كِتَابِ (الْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) وَكِتَابِ (مَحْكَمِ النَّظَرِ) نَمُوذَجٌ مِّنْهُ، وَتَكَبَّ قَرِيحةً أَكْثَرَ فُقَهَاءَ الْزَّمَانِ عَنْ قَصَّ شُرُوطِ التَّبْرُهَانِ عَلَى الْاسْتِيفَاءِ وَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ ذَلِكَ فَلَمَّا التَّبْرُهَانَ إِذَا كَانَ قَاطِعاً رَّخِصَ فِي التَّأْوِيلِ وَإِنَّ كَانَ بَعِيدًا فَإِذَا لَمْ يَكُنْ قَاطِعاً لَمْ يُرَخِّصْ إِلَّا فِي تَأْوِيلِ قَرِيبٍ سَابِقٍ إِلَى الْفَهْمِ.

الخامس : النَّظَرُ فِي أَنَّ دَكْرَ تِلْكَ الْمَقَالَةِ هَذِهِ يَعْظُمُ ضَرَرُهَا فِي الدِّينِ أَمْ لَا ؟ فَإِنَّ مَا لَا يَعْظُمُ ضَرَرُهُ فِي الدِّينِ فَلَامِرُ فِيهِ أَسْهَفٌ وَإِنَّ كَانَ الْقَوْكَ شَنِيعًا وَظَاهِرُ الْبُطْلَانِ، كَقُوْلُ الْإِمَامَةِ الْمُنْتَظَرَةِ إِنَّ الْإِمَامَ مُخْتَفِي فِي سِرِّ دَابٍ فَإِنَّهُ يَنْتَظِرُ خُروجَهُ فَإِنَّهُ قَوْلُ "كَاذِبٌ" ظَاهِرُ الْبُطْلَانِ شَنِيعٌ جِدًا، وَلَكِنْ لَا ضَرَرٌ فِيهِ عَلَى الدِّينِ إِنَّمَا الضَّرَرُ عَلَى الْأَحْمَقِ الْمُعْتَقِدِ لِذَلِكَ إِذْ يَخْرُجُ كُلُّ يَوْمٍ مِّنْ بَلَدِهِ لِاسْتِقْبَالِ الْإِمَامِ حَتَّى يَدْخُلَ فِيَرْجِعٍ إِلَى بَيْتِهِ خَاسِئًا وَهَذَا مِثَالٌ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُكَفَّرَ بِكُلِّ هَذِيَّانِ وَإِنَّ كَانَ ظَاهِرُ الْبُطْلَانِ، فَإِذَا فَهِمْتَ أَنَّ النَّظَرَ فِي التَّكْفِيرِ مَوْقُوفٌ عَلَى جَمِيعِ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ الَّتِي لَا يَسْتَقِي بِأَحَادِهَا الْمُبَرَّرُونَ عَلِمْتَ أَنَّ الْمُبَادرَ إِلَى تَكْفِيرِ مَنْ يُخَالِفُ الْأَشْعَرِيَّ أَوْ غَيْرَهُ جَاهِلٌ مُجَازِفٌ، وَكَيْفَ يَسْتَقِي التَّفْقِيَّهُ بِمُجَرَّدِ الْفَقِيمِ بِهَذَا التَّخْطِيبِ الْعَظِيمِ وَفِي أَبِي رُبْعٍ مِّنْ أَرْبَاعِ الْفَقِيمِ يُصَادِفُ هَذِهِ الْعُلُومَ، فَإِذَا رَأَيْتَ التَّفْقِيَّهَ الَّذِي يُضَاعِفُهُ مُجَرَّدُ الْفَقِيمِ يَخُوضُ فِي التَّكْفِيرِ وَالْتَّضْلِيلِ فَأَعْرَضْ عَنْهُ وَلَا تَشْغُلَ بِهِ قَلْبَكَ وَلِسَانَكَ فَإِنَّ التَّحَدِّي بِالْعُلُومِ غَرِيزةً فِي الطَّبَعِ لَا يَصِيرُ عَنْهُ الْجُهَّاكَ وَلَاجْلِهِ كَثْرَ الْخِلَافِ بَيْنَ

بِمَقْصُورٍ عَلَيْهِ وَهُوَ أَيْضًا نَادِرٌ" ، بَلِ الْأَنْتَفَعُ الْكَلَامُ الْجَارِي فِي مَعْرِضِ الْوَعْظِ كَمَا يُشَتَّمُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ . فَأَمَّا الْكَلَامُ الْمُحَرَّرُ عَلَى رَسْمِ الْمُتَكَلَّمِينَ فَإِنَّهُ يُشَعِّرُ نُفُوسَ الْمُسْتَمْعِينَ بِأَنَّ فِيهِ صَنْعَةً جَدِّلِ لِيَعْجِزُ عَنْهُ الْعَامَيْنَ لَا لِكَوْنِهِ حَقَّا فِي نَفْسِهِ . وَرَبَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِرُسُوخِ التَّعْنَادِ فِي قُلُوبِهِ .

وَلِذَلِكَ لَا تَرَى مَجْلِسًا مُنَاظِرَةً لِلْمُتَكَلَّمِينَ وَلَا لِلْفُقَهَاءِ يَنْكَشِفُ عَنْهُ وَاحِدًا أَنْتَفَعَ مِنْ الْاعْتِرَافِ أَوْ بِدَعَةِ إِلَى غَيْرِهِ ، وَلَا عَنْ مَذَهَبِ السَّافِعِي إِلَى مَذَهَبِ أَبِي حَنِيفَةِ وَلَا عَلَى التَّعْكِسِ . وَتَجَرَّى هَذِهِ الْأَنْتِفَالَاتُ بِأَسْبَابٍ أُخْرَى حَتَّى فِي الْقِتَالِ بِالسَّيْفِ ، وَلِذَلِكَ لَمْ تَجْرِ عَادَةً السَّلَفُ بِالدَّعْوَةِ بِهَذِهِ الْمُجَادَلَاتِ بَلْ شَدَّدُوا الْقَوْلَ عَلَى مَنْ يَخُوضُ فِي الْكَلَامِ وَيَشْتَغِلُ بِالْبَحْثِ وَالسُّؤَالِ ، وَإِذَا تَرَكَنَا الْمُدَاهَنَةَ وَمُرَاقِبَةَ الْجَانِبِ صَرَّحَنَا بِأَنَّ الْخَوْضَ فِي الْكَلَامِ حَرَامٌ" لِكَثْرَةِ الْأَفْةِ فِيهِ إِلَّا لَاحِدٌ شَخْصَيْنِ : رَجُلٌ وَقَعَتْ لَهُ شُبْهَةٌ لَيْسَتْ تَرْوُكُ عَنْ قُلُوبِهِ بِكَلَامٍ قَرِيبٍ وَعَظِيْرٍ وَلَا يُخَبِّرُ نَقْلِيًّا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْقَوْلُ الْمُرَتَّبُ الْكَلَامِيُّ رَافِعًا شُبْهَتَهُ وَدَوَاءً لَهُ فِي مَرَضِهِ فَيُسْتَعْمَلُ مَعَهُ ذَلِكَ وَيَخْرُسُ عَنْهُ سَمْعُ الصَّحِيحِ الَّذِي لَيْسَ بِهِ ذَلِكَ الْمَرَضُ ، فَإِنَّهُ يُوْشِكُ أَنْ يُحَرِّكَ فِي نَفْسِهِ إِسْكَالًا وَيُثْبِي شُبْهَةً تُمَرَّضُهُ وَتَسْتَنْزِلُهُ عَنْ اعْتِقَادِهِ الْمَجْزُومِ الصَّحِيحِ .

وَالثَّانِي : شَخْصٌ كَامِلُ الْعُقْلِ رَاسِخُ الْقَدْمِ فِي الدِّينِ ثَابِتُ الْإِيمَانِ بِأَنْوَارِ الْيَقِينِ يُرِيدُ أَنْ يَحْصُلْ هَذِهِ الصَّنْعَةَ لِيُدُّاوى بِهَا مَرِيضًا إِذَا وَقَعَتْ لَهُ شُبْهَةٌ

الْبَهِيَّةَ زَادَهَا اللَّهُ شَرْفًا وَكَرَامَةً فَرَآهَا يَتَلَالِ مِنْهَا أَنْوَارُ النُّبُوَّةِ قَالَ وَاللَّهِ مَا هَذَا بِوَجْهِ كَذَابٍ . وَسَأَلَهُ أَنْ يَعْرِضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَ ، وَجَاءَ أَخَرُ إِلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ أَنْشِدُكَ اللَّهُ ، أَللَّهُ بِعَنْكَ نَبِيًّا فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِيْ . وَاللَّهُ بِعَنْنِي نَبِيًّا فَصَدَّقَهُ بِيَمِينِهِ وَأَسْلَمَ ، وَهَذَا وَمِثْلُهُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى ، وَلَمْ يَشْتَغِلْ وَاحِدًا مِنْهُمْ بِالْكَلَامِ وَتَعْلِيمِ الْأَدْلَةِ بَلْ كَانَ يَبْدُو نُورُ الْإِيمَانِ يُمْثِلُ هَذِهِ الْقَرَائِنِ فِي قُلُوبِهِمْ لِمَعْنَى بَيْضَاءِ ثُمَّ لَا تَرَأَكَ تَرْدَادٌ إِشْرَاقًا بِمُشَاهَدَةِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ الْعَظِيمَةِ وَتِلْكَ الْقُرْآنَ وَتَصْفِيَّةِ الْقُلُوبِ .

فَلَيْتَ شِعْرِي مَتَى نُقْلَ عنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ عَنْ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِحْضَارًا أَعْرَابِيَّ إِسْلَامٍ وَقَوْلَهُ لَهُ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ حَادَثَ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَالِمٌ بِعِلْمٍ وَقَادِرٌ بِقُدْرَةٍ زَائِدَةٍ عَنِ الذَّاتِ لَا هِيَ هُوَ وَلَا هِيَ غَيْرُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ رُسُومِ الْمُتَكَلَّمِينَ .

وَالسُّتُّ أَقُولُ لَمْ تَجْرِ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ وَلَمْ يَجْرِ أَيْضًا مَا مَعْنَاهُ مَعْنَى هَذِهِ الْأَلْفَاظِ بَلْ كَانَ لَا تَنْكَشِفُ مَلْحَمَةً إِلَّا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَجْلَافِ يُسْلِمُونَ تَحْتَ ظَلَالِ السُّيُوفِ وَجَمَاعَةٍ مِنَ الْأَسَارَى يُسْلِمُونَ وَاحِدًا وَاحِدًا بَعْدَ طُولِ الزَّمَانِ أَوْ عَلَى الْقُرْبِ وَكَانُوا إِذَا نَطَقُوا بِكَلِمَةِ الشَّهَادَةِ عَلَمُوا الصَّلَاةَ وَالزَّكَةَ وَرُدُّوا إِلَى صِنَاعَتِهِمْ مِنْ رِعَايَةِ الْغَنَمِ وَغَيْرِهَا ، نَعَمْ لَسْتُ أَنْكِرُ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذِكْرُ أَدْلَةِ الْمُتَكَلَّمِينَ أَحَدُ أَسْبَابِ الْإِيمَانِ فِي حَقِّ بَعْضِ النَّاسِ وَلَكِنْ لَيْسَ ذَلِكَ

معنئي شرّح الصَّدْرُ فَقَالَ «نُورٌ» يُقْذَفُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ» فَقِيلَ : وَمَا عَلَّمَتْهُ ؟ قَالَ : «الْتَّجَافِي عَنْ دَارِ التَّغْرِيرِ وَالْإِنْابَةِ إِلَى دَارِ التَّخْلُودِ». فِيهَا يُعْلَمُ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ الْمُقْتَلِكَ عَلَى الدُّنْيَا الْمُتَهَالِكَ عَلَيْهَا غَيْرَ مُدْرِكٍ حَقِيقَةَ الْمَعْرِفَةِ وَلَوْ أَدْرَكَهَا لَتَجَافَى عَنْ دَارِ التَّغْرِيرِ قَطْعًا.

الفصل الثاني عشر

قضايا النجاة ، والشفاعة والرحمة الالهية

لَعَلَكَ تَقُولُ أَنْتَ تَأْخُذُ التَّكْفِيرَ مِنَ التَّكَدِيرِ لِلنَّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَالشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ هُوَ الَّذِي ضَيَّقَ الرَّحْمَةَ عَلَى الْخَلْقِ دُونَ الْمُتَكَلِّمِ ، إِذْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا آدَمَ أَبْعَثْتُ مِنْ ذُرَيْتِكَ بَعْثَتِ النَّارِ . فَيَقُولُ يَارَبَّ مِنْ كَمْ ؟ فَيَقُولُ : مِنْ كُكَّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعَينَ ». وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «سَقَقْرَقَ أَمْتَيَ عَلَى نِيْفٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً النَّاجِيَةَ مِنْهَا وَاحِدَةً».

الْجَوَابُ : أَنَّ الْحَدِيثَ الْأَوَّلَ صَحِيحٌ وَلَكِنْ لَيْسَ الْمَعْنَى بِهِ أَنَّهُمْ كُفَّارٌ مُخْلَدُونَ ، بَلْ أَنَّهُمْ يُدْخَلُونَ النَّارَ وَيُعْرَضُونَ عَلَيْهَا وَيُتَرَكُونَ فِيهَا بِقَدْرِ مَعَاصِيهِمْ ، وَالْمَعْصَمُونُ مِنَ الْمَعَاصِي لَا يَكُونُ فِي الْأَلْفِ إِلَّا وَاحِدًا . وَكَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (وَإِنَّ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) . ثُمَّ بَعْثَ النَّارَ عِبَارَةً عَمَّنْ اسْتَوْجَبَ النَّارَ بِذُنُوبِهِ وَيَجُوزُ أَنْ يُصْرَفُوا عَنْ طَرِيقِ جَهَنَّمَ بِالشَّفاعةِ كَمَا وَرَدَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ ، وَتَشَهَّدُ لَهُ الْأَخْبَارُ

وَلِيَقْحِمَ بِهَا مُبْتَدِعًا إِذَا نَبَغَ وَلِيَحْرُسَ بِهِ مُعْتَقَدَهُ إِذَا قَصَدَ مُبْتَدِعًا إِغْوَاءَهُ .

فَتَعْلَمُ ذَلِكَ بِهَذَا التَّعْزِمَ كَانَ مِنْ فَرْضِ الْكِفَائِيَّاتِ وَتَعْلَمُ قَدْرَ مَا يُرِيدُ بِهِ الشَّكُّ وَيَدْرُأُ الشُّبُهَةَ فِي حَقِيقَةِ الْمُشْكُلِ فَرْضٌ عَيْنٌ ، إِذَا لَمْ يُمْكِنْ إِعَادَةِ اعْتِقَادِهِ الْمَجْزُومِ بِطَرِيقٍ أَخْرَى سُوَاهُ . وَالْحَقُّ الصَّرِّيحُ أَنَّ كُكَّ مِنْ اعْتَقَدَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَاشْتَمَكَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ، اعْتِقَادًا جَزْمًا فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْ أَدْلَتَهُ . بَلِ الْإِيمَانُ الْمُسْتَفَادُ مِنَ الدَّلِيلِ الْكَلَامِيِّ ضَعِيفٌ جِدًا مُسْهَرٌ عَلَى التَّرَازُلِ يَكُوْنُ شُبُهَةً ، بَلِ الْإِيمَانُ الرَّاسِخُ إِيمَانُ الْعَوَامِ الْحَامِلُ فِي قُلُوبِهِمْ فِي الصَّبَا بِتَوَاتُرِ السَّمَاعِ ، أَوِ الْحَامِلُ بَعْدَ الْبُلُوغِ بِقَرَائِنِ أَحْوَالٍ لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهَا وَتَمَامُ تَأْكِيدِهِ بِلِزْرُومِهِ التَّعْبِادَةِ وَالْذَّكْرِ .

فَإِنَّ مَنْ تَمَادَتْ بِهِ التَّعْبِادَةُ إِلَى حَقِيقَةِ التَّقْوِيَّةِ وَتَطَهِيرِ الْبَاطِنِ عَنْ كَدْرُوَاتِ الدُّنْيَا وَمُلَازَمَةِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى دَائِمًا تَجَلَّتْ لَهُ أَنْوَارُ الْمَعْرِفَةِ وَصَارَتِ الْأَمْوَالُ الَّتِي كَانَ قَدْ أَخْذَهَا تَقْلِيدًا عِنْدَهُ كَالْمُعَايَنَةُ وَالْمُشَاهَدَةُ وَذَلِكَ حَقِيقَةُ الْمَعْرِفَةِ التِّي لَا تَحْمُلُ الْأَدَلَّةُ بَعْدَ اتِّحَالِ عُقْدَةِ الْاعْتِقَادِ وَانْشِرَاحِ الصَّدْرِ بِنُورِ اللَّهِ تَعَالَى : «فَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَعْدِيهِ يَسْرُحْ صَدَرَهُ لِلْاسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ» (15) .

كَمَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ

الكثيرَةُ الدَّالَّةُ عَلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى.

فَمَنْهُمْ مَا رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : فَقَدْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَابْتَغَيْتُهُ فَإِذَا هُوَ فِي مَشْرَبَةٍ يُصَلِّي فَرَأَيْتُ عَلَى رَأْسِهِ أَنْوَارًا ثَلَاثَةَ فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قَالَ : مُهِمْ مِنْ هَذِهِ ؟ قُلْتُ أَنَا عَائِشَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : أَرَأَيْتَ الْأَنْوَارَ الْثَّلَاثَةَ ، قَلَّتْ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : إِنَّ أَتَيْتَ أَتَانِي مِنْ رَبِّي فِي النُّورِ الْأَوَّلِ فَبَشَّرَنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُدْخِلُ الْجَنَّةَ مِنْ أَمْتَي سَبْعِينَ الْفَأْلَافَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ ، ثُمَّ أَتَانِي فِي النُّورِ الثَّانِي أَتَيْتَ مِنْ رَبِّي فَبَشَّرَنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُدْخِلُ الْجَنَّةَ مِنْ أَمْتَي مَكَانٍ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعِينَ الْفَأْلَافَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ ، ثُمَّ أَتَانِي فِي النُّورِ الثَّالِثِ أَتَيْتَ مِنْ رَبِّي فَبَشَّرَنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُدْخِلُ الْجَنَّةَ مِنْ أَمْتَي مَكَانٍ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعِينَ الْفَأْلَافَ بِغَيْرِ حِسَابٍ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعِينَ الْفَأْلَافَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ . فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَبْلُغُ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ . قَالَ يُكَمِّلُونَ لَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مِمَّنْ لَا يَصُومُ وَلَا يُصَلِّي - فَهَذَا وَمِثْلُهُ مِنَ الْأَخْبَارِ الدَّالَّةِ عَلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرٌ.

فَهَذَا فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةٌ وَأَنَا أَقُولُ إِنَّ الرَّحْمَةَ تَشْمَلُ كَثِيرًا مِنَ الْأَمْمَ السَّالِفَةَ وَإِنْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ يُعَرَّضُونَ عَلَى النَّارِ إِمَّا عُرْضَةً خَفِيفَةً حَتَّى فِي لَحْظَةٍ أَوْ فِي سَاعَةٍ ، وَإِمَّا فِي مُدَّةٍ حَتَّى يُطَافَ عَلَيْهِمْ أَسْمُ بَعْثَتِ النَّارِ بَلْ أَقُولُ إِنَّ أَكْثَرَ نَصَارَى الرُّومِ وَالنُّشُكِ فِي هَذَا الزَّمَانِ تَشْمَلُهُمْ الرَّحْمَةُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ

تَعَالَى ، أَعْنَى الَّذِينَ هُمْ فِي أَقْاصِي الرُّومِ وَالنُّشُكِ وَلَمْ تَبْلُغُهُمْ الدَّعْوَةُ فَإِنَّهُمْ ثَلَاثَةٌ أَصْنَافٌ : صِنْفٌ لَمْ يَبْلُغُهُمْ اسْمُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْلًا فَهُمْ مَعْذُورُونَ . وَصِنْفٌ بَلَغُهُمْ اسْمُهُ وَنَعْتَهُ وَمَا ظَهَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ وَهُمُ الْكُفَّارُ الْمُلْحِدُونَ . وَصِنْفٌ ثَالِثٌ وَالْمُخَالِطُونَ لَهُمْ وَهُمُ الْكُفَّارُ الْمُلْحِدُونَ . وَصِنْفٌ ثَالِثٌ بَيْنَ الدَّارَجَتَيْنِ بَلَغُهُمْ اسْمُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَبْلُغُهُمْ نَعْتَهُ وَصِفَتَهُ بَلْ سَمِعُوا أَيْضًا مُنْذَ الصَّبَّا أَنَّ كَذَابًا مُلْبَسًا اسْمُهُ مُحَمَّدٌ . إِذَا دَعَى النُّبُوَّةَ كَمَا سَمِعَ صِبَّيَانُّا أَنَّ كَذَابًا يُقَالُ لَهُ الْمُقْفَعُ بَعْثَهُ اللَّهُ تَحْدِي بِالنُّبُوَّةِ كَذَابًا فَهُوَ لَا يَعْنِدِي فِي أَوْصَافِهِمْ فِي مَعْنَى الصِّنْفِ الْأَوَّلِ فَإِنَّهُمْ مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْمِعُوا اسْمَهُ سَمِعُوا صِدَّ أَوْصَافَهُ وَهَذَا لَا يُحَرِّكُ دَاعِيَةَ النَّظَرِ فِي الطَّلبِ .

وَأَمَّا التَّحْدِيَّثُ الْآخِرُ وَهُوَ قَوْلُهُ : النَّاجِيَّةُ مِنْهَا وَاحِدَةٌ . فَالرَّوَايَةُ مُخْتَلِفَةٌ فِيهِ . فَقَدْ رُوِيَ الْهَالِكَةُ مِنْهَا وَاحِدَةٌ وَلَكِنَّ الْأَشْهَرَ تِلْكَ الرَّوَايَةُ وَمَعْنَى النَّاجِيَّةِ هِيَ الَّتِي لَا تُعَرَّضُ عَلَى النَّارِ ، وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى الشَّفَاعَةِ بَلْ الَّذِي تَتَعَلَّقُ بِهِ الزَّبَانِيَّةُ لِتَجْرِهِ إِلَى النَّارِ فَلَيْسَ بِنَاجٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَإِنْ أَنْتُمْ بِالشَّفَاعَةِ مِنْ مَخَالِيِّهِمْ : وَفِي رَوَايَةٍ كُلُّهَا فِي الْجَنَّةِ إِلَى الرَّنَادِيقَةِ وَهِيَ فِرْقَةٌ : وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ الرَّوَايَاتُ كُلُّهَا صَحِيحَةٌ فَتَكُونُ الْهَالِكَةُ وَاحِدَةٌ وَهِيَ الَّتِي تُخْلَدُ فِي النَّارِ ، وَيَكُونُ الْهَالِكُ عِبَارَةً عَمَّنْ وَقَعَ الْيَأسُ عَنْ صَالِحِهِ لَأَنَّ الْهَالِكَ لَا يُرْجَى لَهُ بَعْدَ الْهَلَاكِ خَيْرٌ وَتَكُونُ النَّاجِيَّةُ وَاحِدَةٌ وَهِيَ الَّتِي تَدْخُلُ

فَذَلِكَ لِرُكُونِهِ إِلَى الدُّنْيَا وَخُلُوْهُ عَنِ الْخَوْفِ وَخَطَرِ
أَمْرِ الدِّينِ وَذَلِكَ كُفْرٌ : وَإِنْ اتَّبَعْتَ الدَّاعِيَةَ فَقَصَرَ
فِي الطَّلَبِ فَهُوَ أَيْضًا كُفْرٌ بَلْ ذُو الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ مِنْ أَهْلِ كُلِّ مُلَةٍ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَقْتَرَ عَنِ الطَّلَبِ
بَعْدَ ظُهُورِ الْمُخَابِرِ بِالاسْبَابِ الْخَارِقَةِ لِلْعِادَةِ . فَإِنْ
أَشْتَغَلَ بِالنَّظَرِ وَالْطَّلَبِ وَلَمْ يُقْصِرْ فَإِذْ رَكِمَ الْمَوْتُ
قَبْلَ تَمَامِ التَّحْقِيقِ فَهُوَ أَيْضًا مَغْفُورٌ لَهُ ثُمَّ لَهُ
الرَّحْمَةُ الْوَاسِعَةُ : فَبِاسْتِوْسَعِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا
تَرْزَنَ الْأُمُورُ الْأَلْهَيَةُ بِالسَّوَازِينِ الْمُخْتَصَرَةِ الرَّسْمِيَّةِ !

وَاعْلَمُ أَنَّ الْآخِرَةَ قَرِيبٌ مِنِ الدُّنْيَا «فَمَا خَلَقُكُمْ
وَلَا بَعْثَكُمْ إِلَّا كَنْقُسٌ وَاحِدَةٌ» فَكَمَا أَنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ
الدُّنْيَا فِي نِعْمَةِ وَسَلَامٍ أَوْ فِي حَالَةٍ يَغْبِطُهَا إِذْ لَوْ
خَيْرٌ بَيْنَهَا وَبَيْنِ الْإِرْمَاتِيَّةِ وَالْإِعْدَامِ مَثُلًا لَاخْتَارَهَا . وَإِنَّمَا
الْمُعَذَّبُ الَّذِي يَتَمَنَّى الْمَوْتَ نَادَهُ . فَكَذَلِكَ
الْمُخْلَدُونَ فِي النَّارِ بِالْأَضَافَةِ إِلَى النَّاجِينَ وَالْمُخْرَجِينَ
مِنْهَا فِي الْآخِرَةِ نَادَهُ .

فَإِنْ صِفَةُ الرَّحْمَةِ لَا تَتَغَيِّرُ بِاخْتِلَافِ أَهْوَالِنَا، وَإِنَّمَا
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِبَارَاتٌ عَنِ اخْتِلَافِ أَهْوَالِكَ وَلَوْلَا
هَذَا الْمَاكَانُ لَقَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : مَعْنَى
حِيثُّ قَالَ : «أَوْكَ مَا خَطَّ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلَ أَنَا
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَلَهُ
الْجَنَّةُ»

وَاعْلَمُ أَنَّ أَهْلَ الْبَصَائِرِ قَدْ انْكَسَفَ لَهُمْ سَبْقُ
الرَّحْمَةِ وَشُمُولُهَا بِاسْبَابٍ وَمُكَاشَفَاتٍ سُوَى مَا عِنْدَهُمْ
مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْأَثَارِ وَلَكِنَّ ذِكْرَ ذَلِكَ يَطُوُّ . فَأَبْشِرْ

الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا شَفَاعَةَ لَانَّ مَنْ نُوقِشَ
الْحِسَابَ فَقَدْ عَذَبَ فَلَيْسَ بِنَاجٍ إِذَا وَمَنْ عُرِضَ
لِلشَّفَاعَةِ فَقَدْ عُرِضَ لِلْمَذَلَّةِ فَلَيْسَ بِنَاجٍ أَيْضًا عَلَى
الْأَطْلَافِ وَهَذَا طَرِيقَانِ وَهُمَا عِبَارَاتَانِ عَنْ شَرِّ الْخَلْقِ
وَخَيْرِهِ .

وَبَاقِي الْفِرَقِ كُلِّهِمْ بَيْنَ هَاتَيْنِ الدَّرَجَتَيْنِ :
فَمِنْهُمْ مَنْ يُعَذَّبُ بِالْحِسَابِ فَقَطْ : وَمِنْهُمْ مَنْ
يُقْرَبُ مِنَ النَّارِ ثُمَّ يُصْرَفُ بِالشَّفَاعَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ
يَدْخُلُ النَّارَ ثُمَّ يُخْرَجُ عَلَى قَدْرِ خَطَايَاهُمْ فِي
عَقَائِدِهِمْ وَبِدُعَاتِهِمْ وَعَلَى كَثْرَةِ مَعَاصِيهِمْ وَقَلَّاتِهِمْ .
فَأَمَا الْمُهَالِكَةُ الْمُخْلَدَةُ فِي النَّارِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَهِيَ
فِرَقَةٌ «وَاحِدَةٌ» وَهِيَ الَّتِي كَذَبَتْ وَجَوَزَتْ الْكَذَبَ عَلَى
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَصْلَحةِ .

وَأَمَّا مَنْ سَائِرُ الْأُمَّمِ . فَمَنْ كَذَبَهُ بَعْدَ مَا قَرَعَ
سَمْعُهُ التَّوَاتُرُ عَنْ خُرُوجِهِ وَصِفَتِهِ وَمُعْجِزَتِهِ الْخَارِقَةِ
لِلْعِادَةِ كَشَقَ الْقَمَرِ، وَتَسْبِيحُ الْحَصَى وَنَبْعَ الْمَاءِ
مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ وَالْقُرْآنُ الْمُعْجِزُ الَّذِي تَحَدَّى بِهِ
أَهْلُ الْفَصَاحَةِ وَعَجَزَ وَعَنْهُ، فَإِذَا قَرَعَ ذَلِكَ سَمْعَهُ
فَأَعْرَضَ عَنْهُ وَوَلَى وَلَمْ يَنْتَظِرْ فِيهِ وَلَمْ يَتَأْمَكْ وَلَمْ
يُبَادِرْ إِلَى التَّصْدِيقِ، فَهَذَا هُوَ الْجَاحِدُ الْكَاذِبُ وَهُوَ
الْكَافِرُ وَلَا يَدْخُلُ فِي هَذَا أَكْثَرُ الرُّومِ وَالثُّرُكِ الَّذِينَ
بَعْدَتْ بِلَادُهُمْ عَنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ .

بَلْ أَقُولُ مَنْ قَرَعَ سَمْعَهُ هَذَا فَلَا بُدَّ أَنْ تَنْتَبِعَ
بِهِ دَاعِيَةُ الطَّلَبِ لِيَسْتَبِينَ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ إِنْ كَانَ مَنْ
أَهْلَ الدِّينِ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الدِّينِ اسْتَحْبَطُوا الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ . فَإِنْ لَمْ تَنْتَبِعْ هَذِهِ الدَّاعِيَةِ

الرُّؤْيَةَ، وَمَنْ أَتَبَتَ الْجِهَةَ وَأَتَبَتَ إِرَادَةَ حَادِثَةَ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي مَحْلِهِ وَتَكَفِيرُ الْمُخَالِفِينَ فِيهِ، وَبِالْجُمْلَةِ يَلْزَمُهُ التَّكَفِيرُ فِي كُلِّ مَسَأَلَةٍ تَعْلَقُ بِصَفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَذَلِكَ حُكْمٌ لَا مُسْتَنِدًا لَهُ، وَإِنْ حَصَرَ بِبَعْضِ الصَّفَاتِ دُونَ بَعْضٍ لَمْ يَجِدْ لِذَلِكَ فَصْلًا وَمَرْدًا، وَلَا وَجْهٌ لَهُ إِلَّا الضَّبْطُ بِالْتَّكَذِيبِ لِيَعْمَلَ الْمُكَذِّبُ بِالرَّسُولِ وَبِالْمَعَادِ، وَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمُؤْوِلُ : ثُمَّ لَا يَبْعُدُ أَنْ يَقْعُدَ الشَّكُّ وَالنَّظَرُ فِي الْمَسَائِلِ مِنْ جُمْلَةِ التَّأْوِيلِ أَوِ التَّكَذِيبِ حَتَّى يَكُونَ التَّأْوِيلُ بَعِيدًا وَيَقْضِي فِيهِ بِالظَّنِّ وَمُوجِبُ الْاجْتِهَادِ فَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّ هَذِهِ مَسَأَلَةً اجْتِهَادِهِ.

الفصل الرابع عشر

الغلط لا يعرض مرتكبه إلى التكبير

مِنَ النَّاسِ مِنْ قَالَ إِنَّمَا أَكْفَرُ مَنْ يُكَفِّرُنِي مِنَ الْفَرِيقِ وَمَنْ لَا يُكَفِّرُنِي فَلَا وَهَذَا لَا مَا خَذَ لَهُ : فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ "عَلَيِّ" رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَوْ لَهُ بِالْأَمْامَةِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ كُفُّرًا فَبِإِنْ يُخْطِبَهُ صَاحِبُهُ وَيَظْنُنَ أَنَّ الْمُخَالِفَ فِيهِ كَافِرٌ لَا يَصِيرُ كَافِرًا، وَإِنَّمَا هُوَ خَطَا فِي مَسَأَلَةِ شَرْعِيَّةٍ - وَكَذَلِكَ الْحَنْبَلِيُّ إِذَا لَمْ يَكُفِّرْ بِإِثْبَاتِ الْجِهَةِ فَلَمْ يَكُفِّرْ بِأَنْ يَعْلِمَ أَوْ يَظْنُ أَنَّ نَافِيَ الْجِهَةِ مُكَذِّبٌ وَلَيْسَ بِمُتَّوِلٍ.

وَأَمَّا قَوْلُ الرَّسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِذَا قَذَفَ أَحَدُ الْمُسْلِمِينَ صَاحِبَهُ بِالْكُفْرِ قَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا» مَعْنَاهُ أَنَّ يُكَفِّرَهُ مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِحَالِهِ، فَمَنْ عَرَفَ مَنْ غَيْرَهُ أَنَّهُ مُصَدَّقٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى

بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَبِالنَّجَاهَةِ الْمُطْلَقَةِ إِنْ جَمَعْتَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَبِالْهَلاِكِ الْمُطْلَقِ إِنْ خَلَوْتَ عَنْهُمَا جَمِيعًا: وَإِنْ كُنْتَ صَاحِبَ يَقِينٍ فِي أَصْلِ التَّصْدِيقِ وَصَاحِبَ خَطَا فِي بَعْضِ التَّأْوِيلِ أَوْ صَاحِبَ شَكٍّ فِيهِمَا أَوْ صَاحِبَ خَلْطٍ فِي الْأَعْمَالِ فَلَا تَطْمَعْ فِي النَّجَاهَةِ الْمُطْلَقَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّكَ بَيْنَ أَنْ تُعَذَّبَ مُدَّةً ثُمَّ تُخْلَى وَبَيْنَ أَنْ يُشْفَعَ فِيَكَ مَنْ تَيَقَّنْتَ صِدْقَهُ فِي جَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ أَوْ غَيْرِهِ فَاجْتَهِدْ أَنْ يُغْنِيَكَ اللَّهُ بِفَضْلِهِ عَنْ شَفَاعَةِ الشُّفَعَاءِ فَإِنَّ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ مُخْطَرٌ.

الفصل الثالث عشر مأخذ التكبير شرعاً

قَدْ ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ مَأخذَ التَّكَفِيرِ مِنَ التَّعْقِلِ لَا مِنَ الشَّرْعِ وَأَنَّ الْجَاهِلُ بِاللَّهِ كَافِرٌ وَالْعَارِفُ بِهِ مُؤْمِنٌ فَيُقَالُ لَهُ الْحُكْمُ بِإِبَاحَةِ الدَّمِ وَالْخُلُودِ فِي النَّارِ حُكْمٌ شَرْعِيٌّ لَا مَعْنَى لَهُ قَبْلُ وَرُوْدِ الشَّرْعِ وَإِنْ أَرَادَ بِهِ أَنْ الْمَقْهُومُ مِنَ الشَّارِعِ أَنَّ الْجَاهِلَ بِاللَّهِ هُوَ الْكَافِرُ - فَهَذَا لَا يُمْكِنُ حَصْرُهُ فِيهِ لَأَنَّ الْجَاهِلَ بِالرَّسُولِ وَبِالْآخِرَةِ أَيْضًا كَافِرٌ.

ثُمَّ إِنْ حَصَرَ ذَلِكَ بِالْجَهْلِ بِذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، بِجَحْدٍ وَجُودَهِ أَوْ وَحْدَانِيَّتِهِ وَلَمْ يَطْرُدْهُ فِي الصَّفَاتِ فَرَبِّمَا سُوِّيَ عَلَيْهِ : وَإِنْ جَعَلَ الْمُخْطِيَّ فِي الصَّفَاتِ أَيْضًا جَاهِلًا أَوْ كَافِرًا لِزَمَهُ تَكَفِيرٌ مَنْ نَفَى صَفَةَ الْبَقَاءِ وَصَفَةَ الْقِدْمِ، وَمَنْ نَفَى الْكَلَامَ وَصَفَّا زَائِدًا عَلَى الْعِلْمِ، وَمَنْ نَفَى السَّمْعَ وَالْبَصَرَ زَائِدًا عَلَى الْعِلْمِ، وَمَنْ نَفَى جَوَازَ

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ يُكَفَّرُهُ فَيَكُونُ الْمُكَفَّرُ كَافِرًا.
فَأَمَّا إِنْ كَفَرَهُ لِظَنْهُ أَنَّهُ كَذَّابُ الرَّسُولَ فَهَذَا غَلَطٌ مِّنْهُ
فِي حَالٍ شَخْصٍ وَاحِدٍ، إِذْ قَدْ يَظُنُّ بِهِ أَنَّهُ كَافِرٌ مُكَذَّبٌ
وَلَيْسَ كَذَّابٌ وَهَذَا لَا يَكُونُ كُفُّرًا . فَقَدْ أَفَدْنَاكَ
بِهَذِهِ التَّرْدِيدَاتِ التَّنْبِيهَ عَلَى أَعْظَمِ التَّغْوِيرِ فِي هَذِهِ
الْفَاعِدَةِ وَعَلَى الْقَانُونِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُتَّبَعَ فِيهِ
فَاقْتَنَعْ بِهِ وَالسَّلَامُ .

سيميائية الفيصل

١ - تحليل النموذج :

أصبح اختبار نظام النص وعرض نسقه الدلالي والتركيبي من طموحات الفكر العصري المشروعة، والتحليل الاحصائي وبناء الأجهزة المرجعية الملائمة يسعطيان تحديد تركيبة وطوبولوجيا مشجعتين تماماً من وجهة نظر نقديّة. في نص من 9620 كلمة تقريباً، استخرجنا 43 مفهوماً من جملة المفاهيم الأكثر تداولًا.

وهذا النموذج الذي يتكون من 1317 عنصراً لسانياً من عناصر المتن، أي ما يعادل 14 % من النص، يمثل بحق معجم الغزالي الأساسي.

وتواتر ظهور هذه المفاهيم مع اعتبار جميع مشتقّات جذر معين، يتراوح بين 115 (ق. و.ل، قال، قوله...) و 5 (ضرر - ضرّة...).

وفيما يلى لوحة توزيعية للمفاهيم مرتبة حسب نظام تنازلي :

عدد التداول	المشتقات	الجذر
115	قال ، قوله ، يقولون	ق و ل
105	كفر، تكفير، كافر	ك ف ر
94	الله، تعالى	أ ل ه
67	رسول	ر س ل
65	تأويل ، مؤول ، تأويلات	أ و ل
57	يختلف ، مخالفات ، اختلاف	خ ل ف
55	علم ، إعلم	ع ل م
54	الوجود ، موجود	و ج د
49	حق ، حقيقة ، تحقيق	ح ق ق
49	كذب ، تكذيب	ك ذ ب
39	ظاهر ، ظواهر ، ظهر	ظ ه ر
37	إيمان ، مؤمن ، يؤمن ...	أ م ن
34	برهان	ب ه ن

ملحوظة : فيما يخص دلالة هذه الرسوم (المفاهيم) نحيل على معجم المفردات.

إننا نتوفر بناء على هذه اللوحة الاحصائية على نص ذي كثافة مفهومية ملحوظة وتوزيع هذه المفاهيم حسب مقولاتها : الدينية والقانونية والجدلية (المتعلقة بوسائلها البلاغية والمنطقية المستعملة، في فن المناقشة، من طرف الإغريق والتي عمل الفكر العربي على استيعابها) يكشف أن العلاقة بين هذه الحقول المعرفية كانت علاقة وظيفية ولم تصبح خلافية إلا بعد انحطاط الفكر العربي الإسلامي. وباستبعادنا للأصل : ق ول من الترتيب حتى لانفضل مقوله على أخرى، نحصل على التوزيع الآتي :

ثبت ، أثبتت ، أثبتات	ث ب ت	14
النظر ، نظر	ن ظ ر	15
تواتر ، متواتر	و ت ر	16
اعتقد ، اعتقاد ، عقائد	ع ف د	17
يدل ، يستدل ، دلالة	د ل ل	18
فرقه ، مقارقه ، تفرقة ، افتراق	ف ر ق	19
بدعة ، مبتدع	ب د ع	20
انكر ، ينكر ، تنكر	ن ك ر	21
يبعد ، استبعاد	ب ع د	22
الظن ، ظني ، ظنون	ظ ن ن	23
اجماع	ج م ع	24
نسور	ن و ر	25
يجوز ، جواز ، يُجْوَز ، يتتجاوز ، مجاوزة	ج و ز	26
زعم ، يزعم	ز ع م	27
الشرع ، شارع ، الشريعة	ش ر ع	28
صدق ، تصديق	ص د ق	29
خبر ، مخبر ، استخبار	خ ب ر	30
استحالة ، يستحيل ، مستحيل	ح و ل	31
وقف ، توفيق متواافق ، موافقة	و ف ق	32
تقليد ، مقلد ، مقلد	ق ل د	33
أخذ ، اتخد	أ خ د	34
نفي ، نفي	ن ف ي	35
حمل ، يحتمل	ح م ل	36
ضرر	ض ر ر	37
الرندقة	ز ن د ق	38
تضليل	ض ل ل	39
تناقض ، مناقض	ن ق ض	40
يقين	ي ق ن	41
امتنع	م ن ع	42
اضطر	ض ر ر	43

لائحة توزيع المقولات :

الدينية	الشرعية	الجدلية
105 . كفر : 2	5 . أول : 65	57 . خلف :
3 . الله : 3	16 . وتر : 29	55 . علم :
4 . رس : 4	19 . فرق : 22	54 . وجد :
10 . كذب : 10	20 . بدع : 20	49 . حق :
12 . آمن : 37	24 . جمع : 19	39 . ظهر :
17 . عقد : 23	26 . جوز : 18	34 . برهن :
21 . نكر : 20	30 . خبر : 16	32 . ثبت :
25 . نور : 18	37 . ضر : 11	31 . نظر :
28 . شرع : 17	38 . زندق : 10	23 . دل :
29 . صدق : 17	39 . ضل : 8	20 . بعد :
41 . يق : 7		19 . ظن :
		17 . زعم :
		31 . حول :
		32 . وفق :
		13 . قلد :
		34 . أخذ :
		12 . نفي :
		11 . حمل :
		40 . نقض :
		42 . منع :
		5 . ضر :
454	218	530
% 38	% 18	% 44

إن أهمية السجل الجدلية والبلاغي جلية. لقد كانت الحضارة الإسلامية الكلاسيكية جد مشبعة بثقافة فلسفية دينية على المستوى البلاغي والجدلية وبكيفية أقل على المستوى الميتافيزيقي. وهذا ظن خطاب الغزالي لا يفهم خارج

القياس الأرسطي، مع أن الإنحطاط جعل مدى هذا التداخل صعب التصور. ويجب أن نسجل كذلك كفاءة المفكير الكلاسيكي الترتكيبية العالية التي تجمع بين التقليد والوحى الميتافيزيقي وبين الثقافة التجريدية المعقولة. وأخيرا، إذا كان الطلاق بين هذين التيارين قد حدث منذ أمد بعيد في أرض الإسلام فإن الجهود المبذولة من أجل البحث عن تركيب عضوي بين منبعى المعرفة، كانت قليلة.

2 - دراسة الاستقطاب :

إن الرسم التخطيطي للتوزيع المفاهيم المستخلصة من كتاب الفيصل تبين لنا مكان التداول الأكثر تواتراً الخاص بكل مفهوم، ويسمح كذلك بتقدير التركيز واستقطاب كل مفهوم على امتداد عدد معين من الصفحات ، ويعطينا صورة أولية عن تنسيق هذه المفاهيم، ثم إن دراسة الاستقطاب المعمقة تحل إقتصاد النص .

رسم إجمالي لاستقطاب المفاهيم :

1 - نظرية إجمالية :

أ - من ص 1 إلى ص 9 :

سيطرة المرجعية الدينية مع ظهور متزايد (ص 4 و 5) لمفاهيم جدلية مثل: اختلاف، اثبات، نظر، تقليد، تتمحور حول مفهوم التناقض. وهذا المفهوم هو الذي يبيّنُ الانتقال إلى نمط آخر من الخطاب ويحدد التمفصل بين الاعتبارات الدينية والخطاب الجدلية المحسن، ويسجل ظهور جهاز جدلية في إطار صراع بين الفرق ومن هنا الفعالية المعترف له بها .

ب - من ص 9 إلى ص 24 :

سيادة واضحة للمرجعية الجدلية وتركيز حول مفاهيم فلسفية قوامها مقولات الوجود (مراتب الوجود) والبرهان.

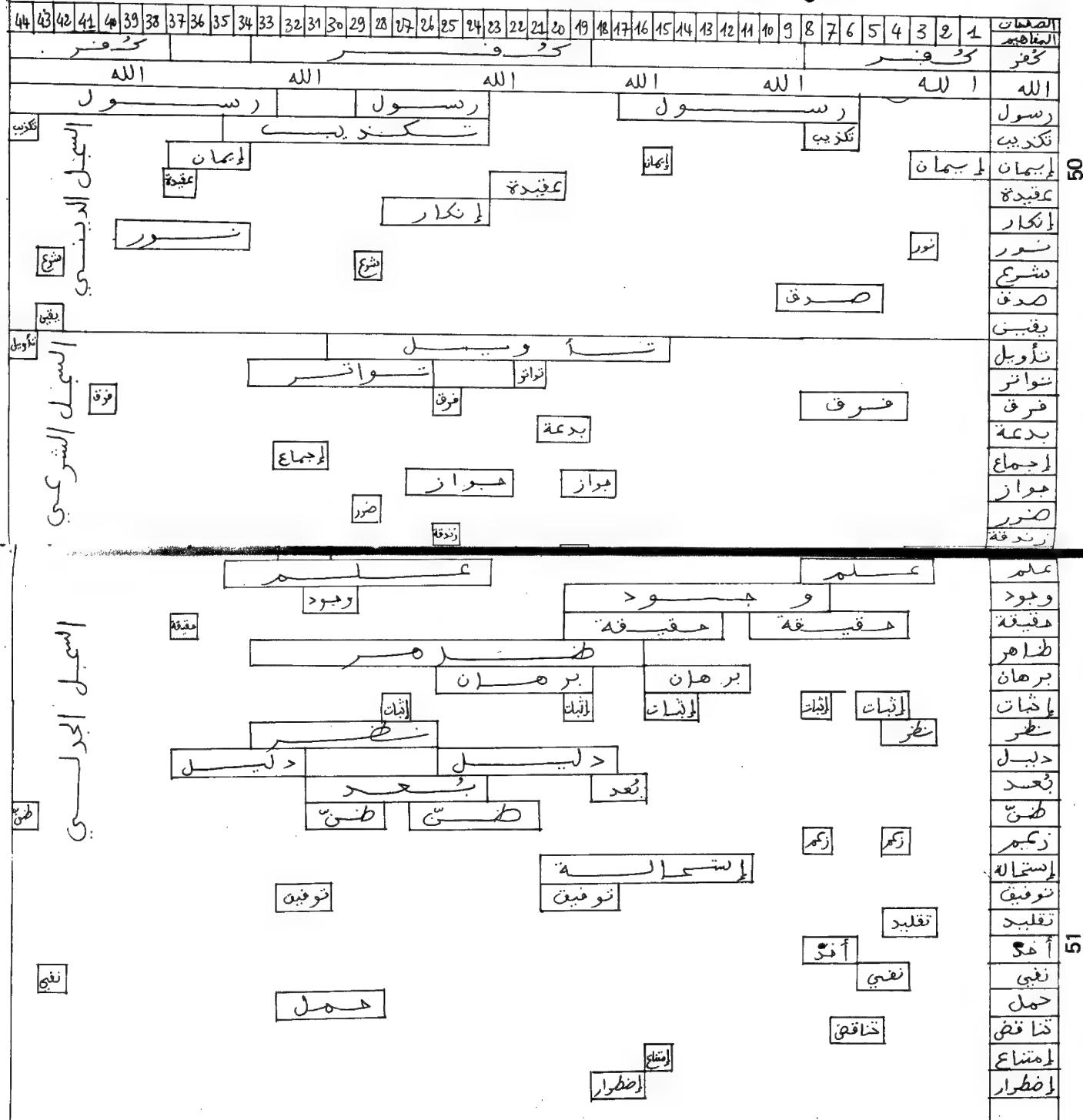
ج - من ص 24 إلى ص 33 :

سيطرة السجل الديني والشرعى وتردد مفاهيم غير اليقينية: البعد، الظن، الحمل الخ

د - من ص 33 إلى ص 44 :

سيطرة السجل الاهوتى والدينى

لوحة إجمالية لاستقطاب المفاهيم



أ 5 - علم
- زعم
يقيك الغزالى لغة الآخرين التي لا أساس لها (زعم)
بخطابه العلمى (العلم).

هناك اعتراف بعلاقة معقولة تجمع بين مبدأ الوحي وبين المفاهيم الفلسفية الدينوية : مقوله الوجود (مراتب الوجود) مثلا. وبفضل توسيع مفهوم الوجود تُذلل العلاقة الصراعية بين وحي واحد وبين تأويلات كثيرة عن طريق تصور متعدد الدلالات للوجود : توجد أنماط كثيرة للوجود صحيحة هي الأخرى .

ومفهوم الحقيقة هو الذي يفصل هذين النظامين من الواقع اللذين يبدوان متناقضين .

لا يقيك الغزالى أي ثبات لا يدعمه برهان . هل كان من الممكن أن يرى هؤلاء في ذاتهم وفي الآخرين أن روح الجسم الالتحامى وتضامن الرأى يكونان حدا لهذا الاقتناء .

مقوله الاستحالة الوحيدة تتعارض مع مقوله الوجود المتعددة : فهي إذن علاقة قائمة لصالح الوجود لأن الاستحالة تفرض بالفعل اختبار عدة امكانيات .

يجب أن نبرهن على استحالة دلالة معينة لا على استحالة مطلقة (كاملة) ، وهذا يؤدى إلى طرح السؤال ، في أي شرط يكون معنى ما ممكناً ، ممكناً بمعنى فعليه حقيقة وليس محض جواز .

وهكذا فالاستحالة اثبات لأن البرهان لا علاقة له إلا بدلالة المعطى المُوحى به ولا يقتضى البينة بظروف الوحي .

أ 6 - رسول
- وجود
- حقيقة

أ 7 - برهان
- اثبات

أ 8 - استحالة
- وجود

أ 9 - استحالة
- برهان

2 - الدراسة التفصيلية :

أ - القطبيات المترافقه (المترتبة) :

يتعلق الأمر بمفاهيم بارزة بسبب تواجدها المشترك في نفس الجزء من الفيصل .

تتحدد المقدمة على الخصوص في إطار المفاهيم الدينية . والمحور الأساسي للخطاب ديني ، وهو لا يهدف إلى تنمية وإبراز نوع آخر من الحقائق غير الحقيقة الدينية .

إن حقل الفكر مقصور على الزوج : اثبات / نفي الأطروحات ، وتسود هذا الحقل فكرة الاختلاف ولا توجد أي إشارة إلى الأصل الاجتماعي لهذه الأطروحات ، والنفي هو التعبير الملائم للإوالية (الميكانزم) ذات التكوين الحزبي ، لكي تكون ، يجب أن تكون معارضًا .

العامل المميز (تمييز الفرق) المقبول لا يمكن وضعه إلا بناء على الشهادة بتصديق الرسول . هذه ملاحظة موضوعية يصوغها الغزالى ، ولكنها ليست كافية لتفحيف من الممارسة المتحيزه الفعلية بمعنى أن الصراعات العقائدية لها دلالة أخرى غير التعبير عن رغبة حقيقة في استئصال المرتقات . وهنالك اعتبارات أخرى إجتماعية وسياسية تدخل في هذا النطاق .

وبالفعل فإن التقليد (التقليد الحرفى) لم يفهم في أصله الاجتماعي ، فهو مطروح بإعتباره نقىضاً للنظر (تحليل نظري ، مقاربة عقلية) : فهو إذن محدد ثقافياً . ويستفاد من ثم أن النظر مستقل عن التعبين الإجتماعي والسياسي ، ويستطيع كذلك أن يؤثر على الاليات ذات الانقضاب الحزبي . ومع ذلك يوجد لدى الغزالى دعمة مشجعة إلى التفكير الشخصي .

أ 1 - كفر
- إيمان
- ضلال

أ 2 - اختلاف
- اثبات
- نفي

أ 3 - صدق
- فرق

أ 4 - تقليد
- نظر

نفرض ضرورة التأويل بالنسبة لكل الفرق، وبالتالي بالنسبة للمجتمع برمتها. إن رفض التأويل يعني موت المعنى لأنه لا أحد يستطيع أن يظنك بمنأى عن انجازات الفكر الديني دون أن يتعرض لخطر (البلاءة) دون أن يتهدده خطر «قطع الصلة بالعقل»

يتعلق التأويل بالمعنى الظاهر وحده. فهو يوطد إذن وجود العقيقة.
ورفض التأويل يمكن أن يربط العقيقة بمظاهر العجز الفكري: إن التأويل يبرر بالدفاع الذكي عن العقيقة.

تضفي مقارنة الاسلام بالافكار والعقائد غير الاسلامية حدة أكثر على مشكل الكفر. فيجب تحديد تأويل ما لا يكون كفرا دون رفض المذاهب الدينيّة (الوضعية) فالامر يتعلق إذن بإدماج هذه العقائد ادماجاً شرطياً يتلافى كل توقع عقيمه.

التأويل تجاوز وترخيص (جواز) دلالة ما . إنه تجاوز متدرج لمعنى ما تبعاً لدرجات الوجود الخمس.
يعتقد الغزالى أن ممارسة الفلسفة والباطنية ليست من التأويل لأنها لا تعتمد على البرهان. فالبرهان، وهو مفهوم ديني يصبح أساسياً.
والبرهان يطابق من خلال النص مذهب الغزالى بصفة قابلة للنزاع.

أ 16 - برهان / علاقة عضوية بين مفهومين منطقيين : الدليل هو أدلة البرهان التي تبيح التأويل في مداه الواسع .
- دليل /

أ 12 - بعد
- اضطرار

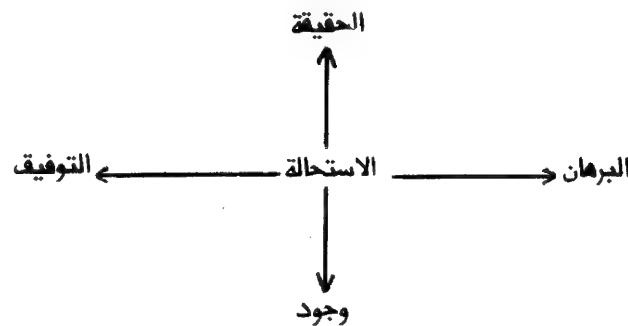
أ 13 - تأويل
- ظاهر

أ 14 - تأويل
- كفر

أ 15 - تأويل
- جواز

ينحل لغز العلاقة بين مفهوم الحقيقة ومفهوم الاستحالة إذا لاحظنا أن الاستحالة لا علاقة لها إلا بمعنى واحد للمعطى المعنى به وليس بجميع معانيه. وإنذا فالاستحالة لاتلغي علاقة المعطى المعنى به، الإيجابية بالحقيقة .

شك



أ 1- إن الاستحالة هذه الكلمة الرهيبة التي استعملتها بسيادة تامة فلسفة متأكدة من واقعها أصبحت محددة عند الغزالى بكيفية رائعة بفضل مفاهيم جدلية (حقيقة، برهان، وجود) وبفضل معيار أخلاقي (توفيق)، لقد تم إذن حصر مفهوم الاستحالة لأنه أصبح موقوفاً على حجة صارمة تثبت تباعاً غياب أي علاقة مع مقولات الوجود الخمس (١) لكي تنتهي بالطعن في العقيقة. وفي الواقع فإن مفهوم الاستحالة يتدخل بتوافق مع مفهوم الحقيقة بحيث أنه مستعمل في اتجاه المواجهة مع المعتقد .

ونسجل هنا العمل الرائع الذي قام به النخبة المثقفة في المجتمع العربي الاسلامي من أجل تأمين ملاعة العقيقة مع عقائد الثقافات غير الاسلامية. وقد أفضت هذه الجهود إلى بناءات عضوية حافظ فيها الاسلام على خصوصياته واستجاب في ذات الوقت إلى ظروف فكر ديني.

(١) كان على الغزالى أن يثبت على التوالي أن أي علاقة مع العدم ليست متضمنة في واحدة من مقولاته عن الوجود وأنه لا يوجد أي مقولات غير التي ذكرها.

إن نموذج المعرفة الصحيحة هو ما تم نقله بواسطة سلسلة متamaske من الضامنين أو هو ما تم وضعه بعد تفكير نظري صحيح : ومصدر الحقيقة، الوحي والعقل معترف بهما معاً. ولم يبدأ فهم العقل بإعتباره شيئاً معادياً للدين إلا في فترة التقهقر الثقافي .

يطرح الغزالى السؤال الجوهرى المتعلق بحق المغالطة، وتقريب المواقف العقائدية. إنه سؤال اشكالى، ولكن حق المغالفة البسيط معترف به بالنسبة للاجماع، على سبيل المثال. وتقريب وجهات النظر موضع تمنى وليس موضع اكراه .

تحتل مفاهيم البدعة والضلال مكاناً في النص مكتفياً بالمصطلحات الجدلية والمنطقية. وهذه المصطلحات تلطف الاتهامات الدينية بما تقتضيه من جهد في التحليل والتمييز .

للاحظ مصير التأويل بواسطة الظن، الذي يؤدي إلى انكار الأركان الدينية، ولذلك فهو غير مقبول .

إن المفاهيم الدينية مثل الإيمان والنور مترابطة على نحو لافت للنظر. فالإيمان، وهو الممارسة الدينية المدققة يعتبر بمثابة نور بسبب أهمية الوظائف شبه العقلانية والكشفية المنسوبة إليه .

إن التشريع الدينى هو حجر الزاوية في كل يقين أولى

أ 22 - علم
- توافر
- نظر

أ 23 - اختلاف
- توقيف
- اجماع

أ 24 - بدعة
- ضلال

أ 25 - انكار
- جواز

أ 26 - إيمان
- نور

أ 27 - يقين
- شرع

التكذيب هو الحد الأقصى للتأويل؛ يجب أن يطابق هذا الحد الأدلة المثبتة بالبرهان. ومجال ادماج المذاهب المختلفة يمكن أن يمتد بحرية شريطة لا ينافق أساس العقائد.

يُعَدُّ الكفر هنا بطريقة تكوينية وليس حزبية وذلك بتعميم التكذيب إزاء النبي. وطبعاً، فإن هذا التعريف يمكن أن تلوثه اهتمامات حزبية أثناء التطبيق.

بين الحالتين : الاستبعاد والظن علاقة وثيقة. وهذا يرسمان حد كل تأويل : وجودهما يلغي كل مؤول ويفتح الطريق لفهم الرذلة والتبذيع.

والحق الدلالي لمفهوم الاحتمال، ذو علاقة بالحالات القصوى لامكانية تأويل ما بمعنى أن هذه الامكانية تظهر حين يستبعد المؤلف التأويل في ميدان معين .

وهذه المفاهيم الثلاثة تجمعها إذن علاقة عضوية .

يلعب التحليل النظري (النظر) دوراً أساسياً في تحليل حقل الشك : المحتمل والظني والممكن.

وكلما كانت هناك حالة على البرهان والدليل قد أفل اللجوء إلى النظر، أما حين تظهر مقولات التشكيك يكثر ذكر النظر .

تناقض المعيار والواقع : بعد أن ربط التأويل بمقولات الوجود والحقيقة والبرهان، يبيّن الغزالى أن التأويل يبتعد، في الواقع، عن هذه المباديء لكي يكون ثمرة الظن .

وهذا الصنف من التأويل يميز بطريقة قابلة للجدل خصوم الغزالى .

أ 17 - تأويل
- تكذيب

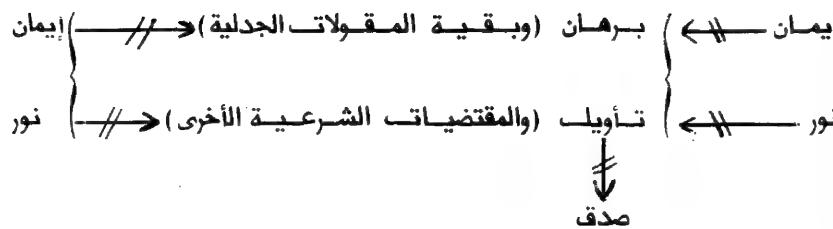
أ 18 - تكذيب
- كفر

أ 19 - بعد
- ظن
- حمل

أ 20 - التأويل
- النظر
- البعد
- الظن
- الحمل

أ 21 - التأويل
- الظن

ج - شكل عام :



لاظهر المقولات الجدلية والمنطقية إلا بعد أن يتم التعرف على قيم الوحي الأساسية عن طريق التسليم البسيط، وحين يجب الفصل بين الفئات الدينية المتنازعة والتي من شأنها أن تعرض الدين نفسه للخطر. وتصبح هذه المقولات زائدة بالفعل، عند شهادة تصديق ثابتة أو بفضل نور يغمر به الله المؤمن.

وفي هذا الصدد فإن نور الوحي ليس استعارة بسيطة بالنسبة لقيمة أخلاقية ما، إذ يجب فهمه بمعنى استمولوجي كمصدر وشكل للمعرفة وهذا الانفصال الذي يبين حقا دور العق البارز في إطار نزاعي لا يسند إليه العق إلا دولا أداتيا إذا ما قارناه بالأدلة الروحية للمعرفة: النور الذي يخلق من جديد النهج الأساسي نفسه (معنى أنه أساس) الذي اتبعه القرآن بإعتباره تنزيلا (وحيانا).

3 - التحليل المفهومي :

1 - تقديم : يفتح الفيصل بعرض حول التباس وأخطاء مختلف الفرق ، حيث يسند الغزالى لنفسه دور المحلك المنصف ، الذي يحلل ويبعد الالتباس .

أ - تماثل / تماثيل :

في الصفحة الأولى والثانية يحصر الغزالى نفسه في شبكة هيئات إيجابية تمنح سلطة قوية وهي : الله، الرسول ، الصحابة والمشايخ (العلماء). ويدعم هذا التماثل الإيجابي الاستشهادات القرآنية التي تساهم بواسطة بنيتها المزدوجة لمضمونها : مؤمنون / كفار، في تمييز بصفة سلبية، خصوم الغزالى في ذهن القارئ .

إن وظيفة الاستشهادات هي تجريح خصومه الذين ليسوا مؤهلين لبحث القضايا الشرعية واللاهوتية. ويتردد في الكتاب نصيحة الغزالى للقارئ : «تحاش

ب - القطبيات المنفصلة :

ويتعلق الأمر بمفاهيم لا علاقة بينها في النص (2)

ب 1 كفر : - وجود مصبوطة (برهان) مفنة (وجود) ودقيقة (وجه الاستحالة) يعصم من الاتهام بالكفر. وهذا الفصل يتضمن مفهوما إيجابيا للعلاقات بين العقل وأركان العقيدة .

ب 2 - برهان بعده ظن التفرقة بين نسقي حدث متقابلين بخصوص قيمتهما العلمية : بالفعل فإن قيمة نتائج هذه المعلومات متناقضة : بينما يقتضي البرهان اليقين، يفترض الاستبعاد الظن الشك.

ب 3 - الصدق البرهان إن الشهادة الأولى بتصديق الوحي تستغني عن كل برهان .

ب 4 - نور تأويل الإنسان الذي يمسه نور الله لا يحتاج إلى تأويل ، وكذلك الإيمان يعفي من كل تأويل .

(2) يوجد فرق كبير بين المفاهيم التي يقابلها الغزالى في نفس المكان من النص وبين تلك التي لا علاقة بينها في النص.

ومن وجهة نظر عملية يمكننا أن نتساءل كيف يستطيع أن يميز الثنائي كفر / خلاف، بعد أن عرض منهج مختلف الفرق في موضوع الحكم بالكفر. لقد توصل إلى ذلك عن طريق تمقضه جديد (تركيب) للكلمات يؤدي إلى علاقة جديدة. كان لدينا زعم / خلاف / كفر، والآن لدينا خلاف أولاً، مقصولاً عن كفر بمصطلح قوي هو حق، تحقيق، ذو قيمة ميتافيزيقية وجدلية متينة لذلك فهو يجب بسهولة كلمة (زعم) الضعيفة جداً. وهذا التحقيق أداته المقولات المنطقية التالية التي أفرغت مفهوم الخلاف من جوهره كله :

الاستحالة	الاستبعاد
الاثبات	
الدليل	
الفرق	
النظر	

وهناك عمل آخر تبسيطي يجري بموازاة ماسبق. فالغزالى لا يكتفى، أمام هذا العدد من أسباب الخلاف بين الفرق، ب النقد مفهوم الخلاف ، فهو يسعى كذلك إلى تبسيط معطيات المشكل بإعطائه بعدها حقيقية : تصديق / تكذيب .

كما يلاحظ انتلاق مشترك من كلمة خلاف إلى كلمة مختلف بعد أن انتزع من هذه المفردة حمولتها الحزبية والسجالية، ثم من كلمة حق إلى حقائق حيث تم الانتقال من مقوله ميتافيزيقية إلى دلالة تجريبية؛ وهذا يعلن عن نقاش نظري من نوع فلسفى، ويصبح التكذير منذ الآن ذا علاقة بمقولات البحث والانسجام : نظر / تناقض .

3 - الزوج : تكذيب / وجود :

نذكر بأن الغزالى بدأ بتأكيد أن الفرق تتم بعضها البعض بالكفر لأسباب تتعلق بالخلافات العقائدية ثم يوضح أن سبب ذلك أيضاً هو كون هذه الفرق كانت تعتقد أن خصومها اتفقاً على النبي بالكذب .

إن الغزالى يعرض إذن اطروحات خصومه على مراحل وبكيفية جزئية ليجردها من الطاقة التي تحويها بوصفها كلية، فكل حد يعرض كما لو كان هو الأساسى في عقيدة خصومه ثم ينقد هذا الحد ويلغى بحجج كثيفة .

كل نقاش معهم ... ولا تضيع فيهم بقية زمانك» ثلاث مرات في صفحتين : ص 2 و 3 مدعماً نصه باستشهاد قرآنى : «لَوْ أَرَادَ اللَّهُ ...» .

الخصوم : إنهم مجاهلون، فهم جماعة، لا أخلاقية، حسدة (طائفة من الحسدة). هذه هي صورتهم الأخلاقية التي تضمنها حالات سلبية إلى استشهادات قرآنية تتعلق بجاهدي الوحي (الجاهلين). فمن جهة، تعريف ذاتي يضفي قيمة عالية بفضل تمكن الغزالى من بعض الأسرار (سر المعاملات)، ومن جهة ثانية، تعريف منقص، مجاهول وتحقيرى .

سر / علم : يعتقد المتكلم أنه يملك أسراراً ينوي افشاءها: «إِعْلَمْ»، وأن لديه نوراً لا يتوفّر عليه خصومه .

إن المفهوم الجارى : علم / نور يبيّن لنا أن العلم، المعرفة الصحيحة، يخضع أولاً لموقف أخلاقي لا عيب فيه، والغزالى يزعم أنه يملكانه معاً .

ب - قيمة الأطروحات :

قال و Zum يتوّزعان أنواع الخطاب .

قال : به تبدأ بكيفية استثنائية قضية غير صحيحة أو شبه مؤكدة وهذا الفعل على صلة مستمرة إما بالله أو بالرسول أو بالغزالى نفسه، وهو يقترب بالصدف والحقيقة والتصديق وبالأحكام التي تعتبر صحيحة .
نعم : يقترب أولاً بخصوص الغزالى ثم بأصحاب الفرق المختلفة، وهو يدل بكيفية مستمرة على اثبات متحيز وعلى حكم ضعيف .

2 - الثنائي : كفر / خلاف :

يظهر هذا الزوج منذ البداية وكأنه غير ذي قيمة لأنه يبدأ بفعل زعم .
والمقابلة : كفر / شبر تضعف كثيراً العلاقة كفر / خلاف باعطائنا فكرة عن تباين بين تعميم الكفر الخطير وسببه (خلاف بسيط) المحدود .

إن الكفر، من جهة أخرى، ذو علاقة بالحق والحقيقة، وهو يسجل مشروع المتكلم الذي يتكون من عملية د.قيقة : الحد أو (التعريف). وهذا المشروع الشريف بحسب يجعل العلم هدفه الحق ويتناقض مع العمى والتقليل. وادخال مقوله التحقيق سيتمكن الغزالى من تحديد الكفر بدقة .

التأويل 64 مرة	الخلاف 51 مرة	ص
0.....	5	5
0	5	6
1	3	7
4	0	12
4	1	16
8	0	17
9	0	18
1	4	20 – 19
4	0	24 – 23
9	2	29
2	6	32 – 31

وهذا يوضح لنا الدور الضمني الذي يلعبه التأويل عند الغزالي، فالتأويل ليس رياضة مجانية أو سجالية تهدف إلى تعميق الصدع الموجود بين الفرق ، بل يجب على العكس من ذلك أن يحد قدر المستطاع من هذه الخلافات .

4 – وجود / ظاهر :

بدل العرض التناعقي للأطروحة الخصوم نجد تحليلاً متشعباً ومعقداً يدور حول مفاهيم الوجود والظاهر. وهذا ما يفسر تعدد دلالات مصطلح الوجود، الذي يمكن أن يعني وجوداً ملموساً صرفاً، أو وجوداً مجازياً أو خيالياً أو محسوساً أو عقلياً. وهذا الاصطلاح يتمفصل مع الظاهر الذي يتمتع هو الآخر بدلالة متعددة. الظاهر: مقوله وجودية ولكنها تستطيع كذلك أن تلغي نمط وجود وهذا يعني أن لها معنى فعلياً وأخر معيارياً) . وهذا التعقيد يسمح بعرض مسألة التأويل الصعبة بكثير من المرونة. ونشير إلى أن التأويل ، إذا كان محدداً بالبرهان، الذي

وقد أدى هذا إلى سد أطروحات الخصوم تدريجياً وإلى فتح على العكس من ذلك حق خطاب الغزالي .

ولنذكر أننا كنا في البداية نتوفر على التوزيع الآتي :

نعم / خلاف / كفر، ثم

خلاف / تحقيق / كفر ، وأخيراً

نعم / تكذيب / كفر .

أما الآن فنحن أمام علاقة يربط فيها التكذيب مع مفهوم الوجود بواسطة البحث عن الحقيقة (التحقيق) وهو حق جد موسع، كما قلنا لأنّه عوض الثنائية الاختيارية : صحيح / خاطيء التي تؤمن وظيفة المنطق الفرقي (مع / ضد) لدينا حقيقة لا تتضمن أقل من خمس درجات في ارتباط مع مقولات الوجود الخمس. كذلك بالنسبة للانتقادات الدلالية للفرق التي ترى الكفر في الخلافات التافهة، يدعو الغزالي إلى ممارسة التفكير العقلي. لذلك فإن تهمة التكذيب نفسها هي التي تغدو عبقرية الإثبات .

ونلاحظ بالفعل من ص 8 إلى ص 18 اختفاء – كلياً أو جزئياً – مقولات تعبّر عن الصراع أو ذات حمولة سجالية قوية مثل الكفر، والتكذيب، والخلاف وأنكر وقد وزعم الخ ... وظهور اصطلاح التأويل : (تفسير مجازي) . وما يلفت النظر كذلك أن مفاهيم مثل التأويل والخلاف تظهر في وظيفة تتناسب عكساً بمعنى أنه كلما دار الحديث عن الأول ، قلت الإحالة على الثاني .

6 - حد البرهان :

إن إدخال مفهوم الظن يبيّن الصعوبة الحقيقة للبرهنة على تأويل معطى واحفاف الفرق في هذا المجال، وهو يصادف كذلك ظهور مفهوم أصول العقائد ونقد سوء استعمال الفلسفة للبرهان، حسب الغزالي. لقد اعتبرت هذه الأصول غير قابلة للتأويل وتسجل حدود مقولات الوجود، ومن هنا يصبح النقاش خاصاً جداً وإيسبياً، ونلحظ لدى الغزالي جهداً لمقارنة الفلسفة بفرقة الزنادقة المنبودة (ص 25)، كما فهم المعتزلة، الذين ورد ذكرهم في معرض الحديث عن الزنادقة، فهما سلبياً. وتحتول حالة «يجوز»، التي استعملت في إطار جهاز مفهومي جدلي إلى خرق، بمعنى خرق الظاهر. ويلاحظ أيضاً ظهور مفهوم الضرر في ص 24 بعد نقد الظن، وهذا المفهوم يأتي مباشرةً بعد نقد الفلسفة، والباطنية والتضوف.

وأخيراً، هل حدث تغيير في موقف الغزالي إزاء البرهان؟ لا يمكن تأكيد ذلك طالما أن رفضه اطروحات خصومه يتم أساساً بإسم البرهان نفسه، ولكن يجب أن نسجل كذلك بأن الاعتبارات الأخلاقية لها وزنها وتأثيرها على البرهان ذاته: فالضرر على الدين يحد من امكانية التأويل ومن ممارسة البرهان، وسيب ذلك معروفاً: في عصر الغزالي إزداد نشاط فرقة الباطنية التي وضعت تأويلات شجيتها الأورتodoxية (أهل السنة) وخاصة الأشاعرة.

7 - منطلقات الشرع :

مادام الغزالي لم يحدد مفهوم الضرر فإن السؤال يظل نتاجاً لذك مطروحاً وباعثاً على التعسّف إلى حد ما. وقد وعى الغزالي هذا الخطر فأكّد تطبيق حكم الكفر على رفض بعض النقاط المعينة مثل الأصول التي هي الإيمان بالله، الإقرار بالرسول وباليموم الآخر، أما الفروع فهي لاتقتضي سوى التبديع أو التخبط.

ويدرس الان زوج : تكذيب / تكفيه انطلاقاً من مفاهيم شرعية مثل توافر والاجماع ص 28 - 32) ونشير إلى أن مصطلحات الاستبعاد والاحتلال والظن ترددت بكثرة على هذا المستوى. والرجوع إلى مفاهيم يُستنتج منها يقين ضعيف يُفسر بكون هذه المفاهيم تنطبق على نقاط تشير جداً كثيراً في الإسلام، واللجوء إلى اصطلاحات صارمة سيؤدي إلى اطروحات مغالية ومتطرفة، كما أن الاتهام بالكفر سيؤدي إلى تصدع كبير في صفو المسلمين والأمكانية مرتقبان مترابطان معاً.

يوجه المقولات المنطقية مثل الاستحال والامتناع والاحتلال فالبرهان هو بالأحرى ذو علاقة بالظاهر وخاضع له، وذلك حتى لا تتعرض علاقة التكامل المطلوبة بين الظاهر والتأويل للخطر. فالتأويل، كما بينا ذلك من قبل، تأويل دلالي وليس تأويلاً منطقياً. وهذا يعني أنه يتعلّق ببحث عن دلالة المعطى الموحى به لا بأساسه الاستدلالي في الواقع بصرف النظر عن كل وحي.

5 - تأويل / برهان :

نسجل حدة كبيرة بين الزوج قوله / رسول الذي يقتضي تأكيداً صحيحاً، وصادقاً، من جهة، وبين التأويل المجازى الذي هو تغيير بالنسبة لهذا القول ، من جهة ثانية. يكشف عن هذه الحدة، جزئياً، شبكة من الدلالات المنطقية والفلسفية (برهان - دليل ، استحالة الخ ...) على أساس مقولات الوجود التي تجعل خطاب التأويل ممكناً.

فهو في حركة أولى يحصر مقوله التأويل بين النظر والبرهان : أي أن البرهان وحده هو الذي يحدد وضعية (قانون) النظر ، ثم، ابتداء من ص 19 يجري الحديث عن البرهان القاطع ، وعلى التوالي يصبح التأويل صعباً أكثر فأكثر. وتساهم في هذا ، عوامل كثيرة هي :

1 - ظهور معيار السلف الصالح

2 - اللزوم المتضاد على مستوى البرهان

3 - مقوله الضرر .

على هذا المستوى يمكن القول بوجود تطور في خطاب الغزالي بالمعادلة المضمرة : برهان / سلف. فليس في ذهن المؤلف أي تعارض بين هذين الاصطلاحين بل معاوضة طبيعية .

وهذه الملامة هي التي تجعل بالفعل نص الغزالي بناءً تاماً. هذه العودة إلى السلف وكذلك هذا الاصرار على البرهان الصارم يظهر أن في الوقت الذي يكون فيه النقاش أقل تجريدًا لفحص قضية الكفر على صعيد عملي، وهكذا نلاحظ تزايد تداول الحالات شرعية ودينية. ولكن لا ينبغي اعتبار هذا تخلّياً عن المنهج المنطقي العقلي. فالعبارة التركيبية : براهين توافرية ص 21 تبين رغبة الغزالي في الجمع بين روح التحليل العقلي والحالات الدينية الشرعية .

معرفة على مستوى أو على آخر من النص ، والكشف عن وجود عدة خطابات متغيرة، بيد أن الفيصل يتتوفر على وحدة عميقة، واستبدال البرهان بالسلف ، والنظر بالنور الذي يتم بطريقة تكاد تكون طبيعية وغير صراعية ينم عن قوة العمل الادعادي المنجز.

6 – سلطة البلاغة :

في العرض المعقّل والكلام الوعظي توجد بلاغة بل تفخيم في صميم فكر الغزالى لأن الكلام يهدف أساساً إلى التأثير على الآخر : «ففي أحيان كثيرة لا يراد للصوت أن يصل فقط إلى آذان المخاطب بل يراد منه أن يصفعه ويخترقه». (3)

يجب علينا إذن أن «نحلل وسائل هذه العملية الدالة في نص ما، وليس فقط الطريقة التي تعبّر بها عن قوتها بل كذلك تلك التي تتطبع بها صورة حركة المتكلم في ذهن المتلقي ..». (4)

1 – علاقة المتكلم / القاريء :

أ – الإطار النفسي – العاطفي :

يُخاطب الغزالى القاريء بطريقة ودية ويحاول خلق نوع من الألفة، فهو يتحدث إلى القاريء باعتباره هذا الأخير «أخًا» وصديقاً مشفّق (ص 1). وهذا من الثوابت عند الغزالى لأنّنا نجد في المشكاة والمقصد الأنسى والمنفذ ومعارج السالكين الخ ... نفس طريقة التخاطب الودية والأخوية. ويحاول الغزالى ربط علاقة عاطفية وثيقة بالقارئ ، فيتحدث عن حالته النفسية والشعرية كما يتصورها هو، فيصفه بأنه «موغر الصدر» «لا تضيق به صدرك ضيق» ص 1 وهذا الاهتمام بالقارئ يقوى تعاطفه ويولد لديه نوعاً من الأنس يمكن أن يجعله يتماثل مع صورة القاريء – النموذج التي يرسمها الغزالى ، فالمؤلف يتصور هذا القاريء كما لو كان شخصاً

(3) لوي ماران : نقد الخطاب - منشورات مينوي ص: 317.

(4) نفسه = ص: 322.

ويوجد لدى الغزالى ، من وجهة نظر دينية، رغبة في مجاملة الاتجاهات السنّية، وصرامة واضحة تجاه الرافضة والباطنية وهي فرق شيعية متطرفة. وهو يجده كذلك في مقارنة جماعة الفلسفه بالفرق المحرّمة من العفو الإلهي، غير أن هذا الموقف ليس نهائياً لأن الغزالى يعرض تصوراً للرحمة الإلهية (ص 37 – 41) يسعى من ورائه إلى التقليل من أهمية الصراعات بين العقائد وإلى تدعيم أطروحة الشك في مادة القضايا الشرعية. والهدف من هذا هو اقناع الفرق المختلفة بتأجيل كل حكم بالكافر تكون له نتائج وخيمة .

8 – نقد الفقهاء والمتكلمين :

تلقي ما ذكر الغزالى على هاتين الجماعتين بما ذكره على أصحاب الفرق ولكن تتضاعف بمقابلة أساسية : دليل / نور يقصى منها الغزالى الجماعتين لأن الفقهاء والمتكلمين لا ينتهيون إلى أهل البرهان ولا يعتبرون من أولئك الذين يمسّهم نور الله (راجع الانتقادات المنظمة التي وجهها الغزالى إلى هاتين الجماعتين في كتابه الأحياء).

وتقترب إدانة هاتين الجماعتين الأخلاقية بعرض (ص 37 – 40) حول رحمة الله التي تتناقض على الخصوص مع المغالاة والتعصب الديني وأحكام الطرد الصادرة من الفرق والمتكلمين . والعودة إلى الرحمة الإلهية تقوم بوظيفة المصالحة وتلطيف الدوّي الفكري والأخلاقي الذي خلفه الصراعات بين الفرق ، ويفسر ، ضمنياً، الهجوم الذي شنه الغزالى ضد المتكلمين، كذلك ، بعدم مشاركة هؤلاء في وحدة المسلمين .

9 – تركيب :

لم نعثر في كتاب الغزالى قط على مفهوم النور، متناقضًا مع مفهوم البرهان، ولم يتعارض في نفس المؤلف مصطلح الرحمة الإلهية مع التحليل العقلي (النظر) وكذلك فإن فكرة الرحمة التي تواترت في نهاية النص لعبت دور المصالحة وهدفت إلى تلطيف الأداء الفكري والأخلاقي التي أثارتها الصراعات ، وأثارها الاختلاف الشهير الذي افتتح به الفيصل، وبهذا ننتهي ، في مجال دراسة القطبيات، إلى تعاظمية مفاهيم من سجلات مختلفة (جدلية، لاهوتية، شرعية). ولكي نتحدث عن تعارض أو تكامل بين هذه المقولات ، كان من الازم إيجاد قطيعة

ج - الاستفهام :

إن تكرار الاستفهام في «الفيصل» لا ينكر دلالة عن معنى مقوله معينة. ويمكن تمييز نوعين من الاستفهام : واقعي وبلاجي. الواقعي ص 29 مثل قوله «هل يحتمل التأويل أم لا»، أو ص 31 : «النظر في أن من خالف بعده، هل يكفر...؟...» الخ ... هذه الأسئلة تبدأ دائمًا بـ «هل» وتدرك على استفهام حقيقي.

وعلى العكس من ذلك الاستفهامات من النوع التالي :

«فأي داع أكمل وأعشق من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وقد قالوا ...» ص 1، «وأي كلام أجمل وأصدق من كلام رب العالمين وقد قالوا ...» ص 1 ذات الشك الخطابي .

فنحن لاننننر أي معلومات من الخطيب بد اذاعنا لما يفك في المؤلف . في مجموعة الاستفهامات ص 4 : « من أين...؟، ولم صار...؟، أكان ذلك...؟ أم...؟ فبأي...؟» الخ ... توجد استفهامات ذات دلالة جد ارتياحية لافتتاح المجال إلا لجواب واحد، وذلك يعادل دلاليًا، نفيًا، أي رفضًا لأفكار عقائدية يحكم عليها الغزالى بالفساد، ولذلك كان لهذه الأسئلة قيمة اقناعية قسرية بالنسبة للقارئ .

2 - تفصيل النص :

يلاحظ في «الفيصل» قوة تماسك الجمل وكثرة المقابلات والتأكيدات الشديدة أداتها عدد محدود من الحروف والصيغ .

فالاعتراض مثلاً يعبر عنه غالباً بـ : بل، بلـ ، التي تفيد أن الصحيح هو بالضبط نقيض ما يدعوه الخصم. وهذا النفي يثير فكرة الصحة بدقته القصوى في رفض أطروحات الخصم .

وييندر أن تتقدم «بل» فكرة المزايدة أو تأتي لتدعى ثباتاً آخر. ولصيغة «إنما» ص 17 - 23 - 31 - 43، وظيفة اعتراضية قربية من وظيفة «بل» مع فرق دقيق في التفسير، إن «إنما» تدخل أطروحة معارضة لتلك التي يقدمها الخصم مع بيان أسباب ودراويف غلطه: «إنما اقتصر...» ص 17، و «إنما خرج بالليل...» ص 22. وإذا كانت «إنما» تدخل فكرة قوية وجد هامة بالنسبة إلى تفكير المؤلف . فإن «إذ»، وهي كثيرة التداول ص 19 - 20 - 24 - 25 - 30 - 32 - 39 تدشن ملاحظة بسيطة أو فرعية، وترتبط بعلاقة تكامل، وظيفية مع «إنما» حيث يأتي

يطرح أسئلة عاطفية وثقافية يتكلف هو بالاجابة عنها : «لعلك تتشتهي ...» ص 7، هذه الإحالة الضمنية على معطيات سيمولوجية القارئ تُستخدم بسبب أهميتها المعمارية وكأدلة اقناع : « والتواتر ينكره الانسان بلسانه ولا يمكنه أن يجعله بقلبه ...» ص 27 وكذلك : « فلابد أن تتبعه به داعية الطلب» ص 35 الخ ومثل هذه التأكيدات تبين أن العقيدة الدينية، في نظر الغزالى ، تفرض نفسها بطريقة عاطفية ونفسية بسبب فضيلة ممتازة تستهوي بكيفية لاقتصر الفكر الإنساني وليس بسبب قوتها الاجتماعية .

يحدثنا الغزالى ، على امتداد كتابه الفيصل ، عن الالتباس وصعوبة التحليل والفهم من ذلك قوله ص 7 :

«فأعلم أن شرح ذلك طويل...» و ص 10: «وسبب ذلك وسره طويل...» و ص 8 : « أعلم أن الذي ذكرناه ...» و ص 25 : «ومالايكفر به يستدعي تفصيلاً طويلاً ...» و ص 30 : «من أغمض الأشياء...». يسعى الغزالى إلى خلق توتر في ذهن القارئ وشك وضيق ويستغل كل ذلك حين يقترح على القارئ اخراجه من الورطة يقول ص 6 : « ولكنني أعطيك علامة صحيحة...» و ص 8 : «وقد شرحته في بعض الكتب ...» و ص 7 : «ولainجيك ...» وهذه الثنائية من التوتر والاطمئنان ذات مفعول لأنها تثير انتباه القارئ وتجعله يفك في إطار يحدده المؤلف . علينا أن نلاحظ هذه الطريقة القائمة على توريط القارئ الذي يشارك شخصياً في تحقيق أقوال المؤلف : يقول الغزالى ص 8 «فإن كنت لاتصدق به فصدق عينك». وص 9: « فإنك تقدر على أن تختبر في خيالك ...» وبهذه الاحالة الملموسة المشخصة استطاع الغزالى أن يحدث في القارئ تأثيراً مقنعاً .

ب - نداء / أمر :

لابتكر الغزالى للقارئ فرصة يحظى فيها بمسافة تبعده عن النص ، فهو يلزمـه، عن طريق استعمال الأمر، على الانحياز وتنبـي وجهات نظره : «أعلم» ص 2، «فأشتغل...» ص 3 ، لاتضيع ...» ص 3، «انظر...» ص 14، «اسمع ...» ص 16، ثم ان الأمر ينـشـي عـلاقـةـ مـرـاتـبـيةـ (ـ طـبـقـيـةـ) لـاتـحـتمـلـ النقـاشـ بـمـعـنـىـ أنـ الغـزالـيـ يـعـتـبـرـ نـفـسـهـ، قـبـلـ كـلـ شـيـءـ، اـسـتـاذـاـ يـلـقـنـ عـلـمـاـ (ـ أـعـلـمـ)ـ أـمـاـ القـارـئـ فـهـوـ فيـ مـرـتـبـةـ التـلـمـيـدـ. وـفـعـلـ الـأـمـ يـكـتـسـبـ قـوـةـ أـكـبـرـ حـيـنـ يـقـرـنـ بـالـظـرـفـ (ـ الـآنـ)ـ :ـ «ـ اـسـمـعـ الـآنـ...ـ»ـ ص 10، «ـ انـظـرـ الـآنـ...ـ»ـ ص 14، تعـطـيـ لـكـلـ الـغـزالـيـ حـضـورـاـ قـسـرـيـاـ .

التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل ...» وفي ص 34: «ابدع حد الإبداع ...».

يظهر التكرار كإكثار لاقية له من مفردة أو تعبير، ولكن وظيفته الحقيقة هي تعويض حجة أو قياس مشروع التوقع، وبهذا فهو يقوم مقام برهان لا يقول اسمه. برهان سري نوعا ما . أما البدل (أو الجمل المتباوقة التي لا يجمعها رابط) فهو ينشأ عن إلغاء الحروف والصيغ التي يتمفصل بها الخطاب عادة، ولا يحافظ إلا على حد أدنى من الترابط حتى يخلف انطباعاً قوياً .

يقول الغزالي ص 20 : « مقام عوام الخلق والحق فيه الاتباع ...» وص 29 : « .. بل لا يستقل به إلا الماهر الحاذق في علم اللغة العارف بإصولها ...». فهذا التعبير الذي يهدف إلى الموافقة الفورية ولا يسمح للقارئ بالاستيعاب التدريجي وتدقيق ما قيل ، عن طريق حذف الروابط المستعملة عادة. يظهر في القضايا الحيوية بالنسبة للغزالي ، مثل مبدأ اقصاء العوام عن علم الكلام .

ولسنا بحاجة إلى إبراز أهمية الحال ، وخاصة الأحوال ذات الوظيفة التفخيمية مثل «أصلاً» ص 20 ، 24 ، 27 ، 29 ، محضر ص 17 ، 29 ، قطعاً ص 20 ، 24 ، 27 ، 28 ، فصلاً ص 3 ، 42 ، على الاطلاق ص 39.

إن استعمال هذه التعبيرات المطردة يدل على رغبة أكيدة في إثارة اقناع القارئ بالحالات المطلقة، فالعقل البشري يكون غالباً أكثر تقبلاً للصيغ المبالغ فيها من الملاحظات ذات الفروق الدقيقة .

وتعبر الجملة الاعتراضية عند الغزالي عن قوة حزبية متميزة، ففي قوله ص 33 «فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة» يوجد تضاد جلي بين «ضيق» و «واسعة» يزداد شدة بمضادة أخرى بين مرجع مجهول (هؤلاء) والله (الله) .

ويُسْعى القلب (التقديم والتأخير) كذلك إلى نفس الغاية فالقصد من قول الغزالي ص 5 « فهو إلى الكفر والتناقض أقرب ...» تقوية الصفة : أقرب .

أما العبارات التحقيقية فسألتها أن تهيني ذهن الآخلاق فكارنا حين تُستخدم لخزي الخصم. وهذه الغاية يلحد الغزالي إلى اعتبارات احتقار كثيرة. ونقتصر دون أن نطيل في عرض هذه الطريقة السجالية المشتركة على الأمثلة التالية :

التفسير الفرعي ليخفف من حدة الاعتراض القاطع. ونذكر كذلك «لو» وهو حرف كثير الاستعمال (ص : 2 - 15 - 18 - 27 - 32 ، الخ...).، يبدأ جملة شرطية ويأتي بـ ليدعم أطروحات الغزالي أكثر مما يقود تعبيراً افتراضياً .

وأخيراً، فإن استعمال لفظة «نعم» ذو وظيفة إضرابية، بالحري، وذلك في صيغ : «نعم إن» ص 23، و «نعم، لو» ص 27، ويصلح في الواقع لوضع حد للتصورات المقبولة .

هذا وانطلاقاً من عدد محدود من الجمل والصيغ تعدد الدعائم الحقيقة لأسلوب الغزالي، ألم هذا الأخير نصاً وفق خطاطة تمكن القارئ من فهم - دون تغيير - مضمون كل جملة، بفضل هذه العناصر المقدمة .

وهذا طبعاً عامل إيضاح، يسهل القراءة ويخلق آليات تفكير تُكَوِّن عناصر اقناع لا يستهان بها .

3 - صيغ الأسلوب :

إن مساعدة الصور البينية في إنتاج الدلالة لها مفعولها الذي يفوق الاهتمامات الجمالية التي توكل إليها عادة نجاعة اقناع : «إن حلية الفصاحة شكل من أشكال الرغبة في بلبة البنية الدلالية المفردة أو المركبة بالطريقة الأكثر جذرية، فالصورة في الكلام تسجل اللحظة التي . بدل أن تمحى فيها المفردة أو الشكل الصرفي، بين الفكرة والشيء، تمنح نفسها كمراجع وقتسحيل شيئاً، والتي تطمس فيها الصورة المسمى المعببة عنه وتصبح محاكاة لحركات النفس وقوى الرغبة، فالصورة يتخذ الكلام شكلًا مرجئياً». (5)

يلجأ الغزالي كثيراً إلى التكرار. يقول ص 2 : «قططمع في غير مطعم ...» وفي ص 3 : «إلههم هواهم ومعبودهم...» وفي ص 4 : « كفر من الكفر الجلي ...» وفي ص 5 : « وشرط المقلد أن يسكت ويسكت عنه ...» وفي ص 19 : « وأمثالها ظنون يظنوا ...» وفي ص 28 : « وأما هذا فإنه يهدم الشرع من الشرع، وضرر هذا فوق ضرر من يقول ...، ويتداعى هذا إلى أن يدعي كل ...» وفي ص 29 « والمبادرة إلى

(5) لوي ماران = المرجع السابق ص: 313.

معجم المصطلحات

- جالس . مجالسة .	- ١ -	- أصل - أصول - أصول العقائد .
- جمـع - اـجـمـاع .		- إمام
- جـاز - يـجـوز - مـجاز .		- أهـلـالـاسـلـام
- جـوـهـر - جـوـاهـر .		- أـوـلـاتـ تـأـوـيـلـاتـ تـأـوـيـلـ .
- اـجـتـهـاد .		- أـوـلـيـاتـ .
- ح -	- ب -	
- حـدـيـث .		- بـحـثـ .
- حـدـ .		- مـبـتـدـعـ (ـبـدـعـ) .
- حـجـةـ (ـجـ) حـجـجـ وـحـجـجـ .		- بـرـيـءـ .
- حـسـيـ .		- بـرـهـانـ .
- حـسـابـ .		- بـصـرـ أـبـصـارـ .
- حـشـرـ الـأـجـسـادـ .		- أـهـلـ الـبـصـائـرـ .
- حـقـ - حـقـيـقـةـ - (ـعـلـىـ التـحـقـيقـ)		- اـسـبـطـاـرـ .
- أـهـلـ الـحـلـ وـالـعـقـدـ .		- بـطـشـ .
- اـسـتـحـالـةـ .		- بـاطـنـ .
- خ -		- بـاطـلـ .
- خـبـرـ - مـخـبـرـ - اـسـتـخـبـارـ .		- اـسـتـبـعـدـ (ـبـعـدـ) .
- خـطـأـ - تـخـطـةـ .		- اـسـتـبـعـادـاتـ (ـاسـتـبـعـادـ) .
- اـخـتـلـافـ - الـمـخـالـفـ .		- بـقـاءـ .
- أـوـلـ مـخـلـوقـ .		- اـبـاحـةـ الـدـمـ .
- خـيـالـيـ .		- بـيـنـةـ .
- د -	- ث -	
- درـجـاتـ .		- ثـبـثـ .
- درـكـ - مـدـرـكـ .		- ج -
- دـعـوـيـ .		- جـدـلـ (ـصـنـعـةـ الـجـدـلـ) .
- دـلـيـلـ قـاطـعـ .		- جـرـبـ (ـتـجـرـيـبـيـ) .
- أـهـلـ الـدـيـنـ .		
- دـوـامـ الـوـجـودـ .		

١ - الاتهام بالجهل والعمى : ص 32 ، 31 ، 17 :

تجاهـلـ . جـاهـلـ ، جـهـاـلـ .

٢ - الاتهام بالغباء : الغباء (ص 18) - بـلـيـدـ : (ص 3) - أـحـمـقـ (ص 28)

٣ - الاتهام بالشطط : اـسـرـافـ : (ص 8 - 27 - 32) .

٤ - السخرية : فـهـذـاـ جـنـسـ تـأـوـيـلـهـمـ (ص 23) .

تتمثل وظيفة هذه الاتهادات في منع القارئ من الانحياز إلى أطروحات خصوم الغزالي حتى لا يتعرض لهجوم وسخرية المؤلف. فهي إذ تقوم بدور رديعي، يدعم أطروحات الكاتب. وتبين الوسائل الصوتية التي تعتمد على الإيقاع والجهارة والتناغم شبه الشعري للجمل المركبة تركيباً تنازلياً أن الاعتبارات الجمالية غير غائبة عن هذا المشروع المغربي، مثل ذلك قوله ص 1 : « واستحرق من لا يحسد ولا يقذف واستصرخ من بالكفر أو الضلال لا يعرف ». والأسلوب، أجمالاً مفعم بالتعليق والقوة والتحيز الحزبي والصراع الإيديولوجي وترتبطه علاقة معقدة بصفاء الخطاب العقلاني، القابل للانتقاد.

وأخيراً فإن التفسخات الاجتماعية والسياسية تنعكس بالتأكيد، في الخطاب الإسلامي القروسطي * ولكن انفتاحه على الأفكار المختلفة ساهم في إيجاد نصوص متحيزة لا يمكن انكار قيمتها الثقافية.

- لبس - تلبيس .
 - الهم .
 - الواح .
 - ه -
 - مجلس مناظرة .
 - ملکوث .
 - معنوي .
 - ن -
 - نزل .
 - نظر - أهل النظر - النظريات .
 - الإمامة المنقورة .
 - النور .
 - ه -
 - الهوى .
 - و -
 - تواتري - وتر .
 - ثقة .
 - وجود .
 - وجود - وجه .
 - توحيد .
 - وهي .
 - ميزان .
 - وغل - توغل .
 - اتفاق .
 - وهي .
 - ي -
 - يقين .

- غ -
 - غموض .
 - غلو .
 - غور .
 - غواية .
 - غيب .
 - ف -
 - فتوى - فتاوى .
 - فرض عين - فرض الكفایات .
 - أهل الفصاحة .
 - فصل .
 - فضل .
 - فقه - الفقیهات .
 - تفاوت .
 - ق -
 - قبلة .
 - قدر - مقدر .
 - قلد - تقليد - مُقلد - مُقدّد .
 - قول .
 - قياس .
 - ك -
 - كذب - تكذيب .
 - كشف - انكشف .
 - كفر .
 - كلام - متكلم .
 - الكليات .
 - كمال .
 - كال - مكيال .
 - ل -
 - لبى -

- ص -
 - صهائف (صحيفة) .
 - صادق - أصدق - تصديق -
 مصدق .
 - صفاء .
 - صلاح - أصلاح - اصطلاح .
 - ض -
 - ضرر .
 - مضطر .
 - ضرورة .
 - ضروريات .
 - ضال .
 - ط -
 - طرق (طريق) .
 - ظ -
 - ظنون - (ظن) .
 - ظاهر .
 - ع -
 - عبادة .
 - عذاب .
 - اعجز - معجز .
 - (عسف) - تعسف - متغسف .
 - عقل - عاقل - عقلي .
 - علم - معلومات .
 - عمل - أعمال .
 - معاملات الدين .
 - عاين - معاينة .
 - عوام .

- ذ -
 - ذكر .
 - ذهب - مذهب - أصحاب المذاهب .
 - ذات - ذاتي .
 - (-
 - قب - مراتب (تبة) .
 - الرسول .
 - رسم - رسوم .
 - (و -
 - رياضة .
 - رواية .
 - ز -
 - زندقة .
 - م -
 - أسرار - سر .
 - إسراف .
 - استعارة .
 - السلف الصالح .
 - سنة .
 - الاستواء .
 - ش -
 - شأن .
 - شبهة .
 - أشبه - مشابه - شبهي .
 - شرع - حكم شرعي .
 - مشرك .
 - شفاعة .
 - اشكال .
 - شهادة - مشاهدة .